روايات مصرية للجيب

د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

الورقة الأخيرة

145



رجل المستحيل

(أدهم صبري).. ضابط مخابرات مصري، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعني أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعني أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبري) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة، وبراعته الفائقة في استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد في سن (أدهم صبري) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبري) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة تلك اللقب الذي أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - لحظات الخطر..

« كل محاولاتنا، للاتصال بسيادة العميد (أدهم صبري)، فشلت يا سيّدي.. »

نطق المساعد الأوّل، لمدير المخابرات العامة المصرية العبارة، في توتر ملحوظ، إلا أن مديره أومأ برأسه متفهمًا، وهو يقول في هدوء:

- كنت أتوقّع هذا إلى حد ما.

بدت الدهشة على وجه المساعد، وهو يغمغم:

- حقًا ؟!

أشار المدير بيده، وهو ينهض من خلف مكتبه، قائلاً:

- وكيف يمكن أن نتوقّع العكس، في هذه المرحلة البالغة الدقة، من عملية (روما) ؟

ثم اتجه نحو نافذة حجرة مكتبه، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يتطلّع عبرها بضع لحظات في صمت، قبل أن يتابع، في هدوء حازم:

- منذ تلك اللحظة، التي تسلّل فيها رجلنا (عماد رامز)

إلى شقة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى فى (روما) ، (جون روتشيلد) ؛ لينتزع منها الأوراق السرية بالغة الخطورة ، والتى تثبت تورُّط الإسرائيليين ، فى واقعة الهجوم على برجى التجارة العالميين فى (نيويورك) ، فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ألفين وواحد ، والأمور مشتعلة إلى أقصى حد ممكن ..

غمغم المساعد :

ـ هذا صحيح ..

واصل المدير ، وكأنه لم يسمعه :

ـ الإسرائيليون أصابوا (عماد) ، وظفروا به ، واستعادوا أوراقهم السرية ، ولكنهم كشفوا أنه قد التقط صورها ، بآلة تصوير رقمية إليكترونية ، عثروا عليها فى جعبته ، ولكن دون بطاقتها الخاصة بتخزين الصور ، وعلى الرغم من بحثهم المضنى الطويل ، وعدم عثورهم عليها ، إلا أنهم واثقون من وجودها فى مكان ما ، مما يدفعهم للبحث عنها على نحو محموم ، قبل أن نحصل نحن عليها ..

أراد المساعد أن يلقى تعليقًا قصيرًا ، معلنًا أن المخابرات المصرية أيضًا لم تعثر على تلك البطاقة الرقمية الإليكترونية ،

التى تحوى صور الوثائق الإسرائيلية ، إلا أنه لم يكد يفتح شفتيه ، حتى انتبه إلى أن مديره لا يتحدَّث إليه فعليًا ، وإنما يراجع الأحداث كلها بصوت مسموع ؛ لذا فقد أطبق شفتيه ، وترك مديره يواصل ، قائلاً :

ـ لهذا أرسلنا المقدَّم (منى) إلى (روما) ؛ لتتولَّى العملية رسميًا ، مع رجالنا هناك ، خاصة وأن الإسرائيليين قد أرسلوا أخطر رجالهم على الإطلاق .

وصمت لحظة أخرى ، قبل أن يلتفت إلى مساعده ، مضيفًا :

ـ (دوريل) .. (شيمون دوريل) .

ازدرد المساعد لعابه ، وغمغم فى انفعال :

ـ من حسن حظنا إذن أن سيادة العميد (أدهم) هناك أيضًا يا سيِّدى .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ (ن ـ ١) ليس هناك فحسب ، ولكنه داخل السفارة الإسرائيلية أيضًا ، بين رجالها ومسئوليها ..

واتسعت ابتسامته ، مع استطرادته :

ـ ولا أظن رجل مخابرات آخر ، فى العالم كله ، يمكن أن يعمل ، بهذه الجرأة المدهشة ، والبراعة اللامحدودة .

قال المساعد فى حذر :

ـ ألا يمكن أن ينكشف أمره هناك يا سيِّدى ؟!

صمت المدير بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ أظن هذا أمرًا حتميًا .

ثم استدرك فى سرعة ، وهو يرفع سبَّابته أمام وجهه :

ـ ولست أظن هذا يقلقه .

هتف المساعد مبهورًا :

ـ حقًا ؟! ألا يقلقه أن ينكشف أمره ، فى قلب السفارة الإسرائيلية هناك .. فى (روما) ؟!

عاد المدير يبتسم ، وهو يقول :

ـ لو أنك تعرف (ن ـ ١) كما أعرفه ؛ لأدركت أن كل ما يقلقه دومًا هو نجاحه فى مهمته .

وتألقت عيناه ، وهو يضيف بلهجة خاصة :

ـ من أجل (مصر) .

شعر المساعد بالحماسة تسرى فى كيانه ، مع عبارة المدير الأخيرة ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يقول فى حزم :

ـ ولكن رسالة سيادة العميد (أدهم) الأخيرة ، تقول : إن رجل الموساد الشرس (شيمون دوريل) ، قد وضع خطة شيطانية رهيبة ، لدفع زميلنا (عماد) إلى الإفصاح عن الموقع السرى ، الذى أخفى فيه بطاقة التصوير الرقمية ؛ وذلك من خلال إقناعه ، عندما يستعيد وعيه ، بأنه قد عاد بالفعل إلى (مصر) ، وأصبح آمنًا تحت علمها .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يغمغم :

ـ فكرة شيطانية بحق .

قال المساعد فى سرعة :

ـ ليس هذا فحسب يا سيِّدى ، ولكنها مقنعة جدًا أيضًا ، وقادرة على خداع (عماد) ، لو تم تنفيذها بالبراعة اللازمة .

تنهَّد المدير فى عمق ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، وهو يتطلَّع مرة أخرى عبر نافذة حجرة مكتبه ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ عزاؤنا الوحيد هو أن (أدهم) بالداخل .

قال المساعد بنفس السرعة :

ـ ولكن (منى) و (أشرف) بالخارج يا سيِّدى ، والمراقبون يؤكدون أن الإسرائيليين قد كشفوا أمرهما أيضًا .

وازداد انعقاد حاجبى المدير بشدة ..

فهذا يعنى أن الموقف قد تعقّد أكثر وأكثر ..

والواقع أن مالم يعلمه المدير ، فى تلك اللحظة ، هو أن الأمور قد بلغت بالفعل مرحلة بالغة الدقة والخطورة ..

فـ (أشرف) و (منى) يواجهان فوهات مسدسات ثلاثة من رجال أمن السفارة الإسرائيلية ، فى قلب (روما) ، فى نفس اللحظة التى يهم فيها (عماد) بإعلان مخبأ البطاقة الرقمية ، على مسامع (شيمون) ، فى قبو السفارة نفسها ..

ومن الناحية النظرية ، كان هذا يعنى أن النصر سيتحقّق للإسرائيليين ، فى هذه العملية .

النصر الكامل(*) ..

* * *

كل العوامل ، فى قبو السفارة الإسرائيلية فى (روما) ، كانت تؤكد أن الإسرائيليين قد انتصروا بالفعل ، فى هذه العملية المعقّدة ..

كل العوامل ..

بلا استثناء ..

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزأين ، الأول والثانى .. (الأوراق المكشوفة) ، و (المحترفون) ، المغامرتين رقمى (١٤٣) ، و (١٤٤) .

(عماد) استعاد وعيه بصعوبة ، وكل شىء من حوله يوحى بأنه قد عاد إلى (مصر) ، والمنطق والعقل يؤكدان حتمية أن يُخبر المصريين بمخبأ بطاقة التصوير الرقمية ..

ثم إنه من المستحيل أن تخطر بباله تلك الخدعة ، التى قام بها (شيمون) !!

من المستحيل تمامًا ..

لذا فقد التقط (عماد) نفسًا عميقًا ، وهو يرقد على فراش المرض ، محاولاً استعادة سيطرته على عقله وحواسه ، واستجلاب صفاء ذهنه المشتّت ، وأدار عينيه مرة أخرى فى المكان ، الذى تم إعداده بمهارة مدهشة ، ليبدو أشبه بحجرة عناية مركزة ، فى قلب (القاهرة) ، قبل أن يستقر بصره على وجه (شيمون) ، الذى قدّم له نفسه باسم (عبد الرحمن) ، منتحلاً شخصية مندوب من رياسة الجمهورية ..

وبمجهود فاق طاقة البشر ، كتم (شيمون) انفعاله فى أعماقه ، ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم بالطبع ضرورة أن نتوصّل إلى تلك البطاقة الرقمية ، قبل أن يظفر بها العدو .. أليس كذلك ؟!

أومأ (عماد) برأسه إيجابًا ، متمتمًا فى تهالك :

ـ بالتأكيد .

مال (شيمون) نحوه ، وهو يسأله فى لهفة ، لم يستطع كتمانها :

- أين هى إذن ؟! أين أخفيتها ؟!

بدت ابتسامة شاحبة ، على وجـه (عماد) ، وهو يشير بسبابته ، قائلاً :

- فى مكان لن يخطر ببالهم أبدًا .

كاد (شيمون) يصرخ ، من فرط اللهفة ، وهو يكرّر :

- أين هى ؟! أين ؟!

انفرجت شفتا (عماد) ، وأسبل جفنيه ، وهمّ بإجابة السؤال ..

وخفق قلب (شيمون) فى عنف ..

خفق حتى كاد صاحبه يثب من مكانه ، وجسده كله ينتفض ، و ..

« لحظة يا سيدى .. »

انطلقت العبارة فجأة ، بصوت (دافيد دونهـام) ، مسئول أمن السفارة ، وبلغة عربية ، ولهجة مصرية خالصة ، وفقًا لتعليمات (شيمون) ، الذى احتقـن وجهه فى شدة ، وهو يلتفت إليه فى غضب هادر ، قائلاً :

- ليس الآن يا رجل .. ليس الآن .

ولكن (دونهام) أجاب ، فى شىء من التوتر :

- الأمر لا يحتمل التأجيل لحظة واحدة ، يا سيد .. يـا سيّد (عبد الرحمن) .

ازداد احتقان وجه (شيمون) ، من فرط غضبه لهذه المقاطعة ، التى اقتحمت الموقف ، فى أسوأ توقيت على الإطلاق ، وتمنى فى أعماقه لو سحب مسدسه فى هذه اللحظة ، ونسف به رأس (دونهام) ، إلا أنه استنفر كل إرادته ؛ ليتظاهر بالهدوء ، وهو يتجه نحوه ، قائلاً فى حزم :

- أتعشّم أن يستحق الأمر هذا .

غمغم (دونهام) :

- إنه يستحق .

كانا يتبادلان الحديث بمصرية خالصة ، وعلى نحو يمكن أن يتفق مع المعطيات الزائفة للموقف كله ، لذا فقد استرخى (عماد) فى فراشه ، واكتفى بمتابعتهما ببصره فى هدوء ، فى حين مال (دونهام) على أذن (شيمون) ، وهمس بالعبرية ، فى توتر شديد :

- زميلة (أدهم صبرى) ورفيقها هنا ..

انعقد حاجبا (شيمون) فى شدة ، وهو يهمس بدوره :

ـ هنا ؟!

أجابه (دونهام) همسًا فى سرعة :

ـ طاقم الأمن رصدهما يراقبان السفارة من الخارج ، وخرج ثلاثة من رجال أمننا للتخلص منهما ، لولا أن أدركت الموقف فى اللحظة المناسبة ، فأمرت رجالنا بعدم إطلاق النار ، وطلبت منهم إحضارهما إلى الداخل .

احتقن وجه (شيمون) مرة أخرى ، وهو يهمس فى حدة :

ـ إحضارهما إلى داخل السفارة ؟! هل جننت يا هذا ؟! هل رأيت أنه من الحكمة أن تجمعهما بـ (أدهم) ، الذى لم نعثر عليه بعد ؟!

أجابه (دونهام) ، فى همس حمل رنة صارمة :

ـ بل رأيت أن وجودهما فى قبضتنا سيجعل منهما سلاحًا فى مواجهته ، عندما تحين اللحظة المناسبة .

رمقه (شيمون) بنظرة غاضبة صارمة ، قبل أن يقول بصوت مسموع ، وقد استعاد لغته العربية ، ولهجته المصرية :

ـ فليكن .. سنناقش هذا فيما بعد .

اعتدل (دونهام) ، وقال بدوره :

ـ بالتأكيد يا سيِّد (عبد الرحمن) .. بالتأكيد .

كان همسهما من الخفوت ، بحيث يستحيل أن يسمعه (عماد) ، لذا فقد التفت إليه (شيمون) ، وقال ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة :

ـ أنت تعرف مشكلات عملنا بالطبع .

تمتم (عماد) فى خفوت :

ـ بالطبع .

اتجه (شيمون) نحوه ، وجلس على طرف فراشه ، ودسَّ أكبر قدر ممكن من المودَّة والهدوء فى صوته ولهجته ، وهو يقول :

ـ والآن يا بطل ، فلنعد إلى موضوعنا .. أين أخفيت البطاقة ؟!

تطلَّع إليه (عماد) بضع لحظات فى صمت ، وعاد يدير بصره فى المكان ، على نحو استفزَّ مشاعر (شيمون) ، إلا أنه حافظ على سَمْته كجبل من الثلج القاسى ، وهو يقول بنفس الصوت واللهجة :

ـ أين يا بطل ؟!

أدار (عماد) عينيه إليه هذه المرة ، ثم سأله فجأة :

ـ لماذا أرسلوك ؟!

كان السؤال مباغتًا بحق ، حتى إن (شيمون) تراجع بحركة حادة ، وكادت تفلت منه كلمة دهشة عبرية ، لولا أن استوقفها فى اللحظة الأخيرة ، قائلاً بلهجته المصرية :

ـ ماذا تعنى ؟!

حاول (عماد) أن يعتدل ، على الرغم من الآلام المنتشرة فى جسده ، وهو يقول فى حزم :

ـ أعنى لماذا أرسلوا مندوبًا من رياسة الجمهورية ؟! لماذا ليس أحد رجال المخابرات ؟!

لم يشعر (شيمون) بالارتياح للسؤال ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، حافظ على هدوئه وتماسكه كمحترف ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ كلانا يعلم أنه لا يحق لى حتى إلقاء السؤال .. إنها القاعدة الذهبية الأساسية يا بطل .. المعرفة بقدر الحاجة .. لا أحد يعرف أكثر مما تحتاج إليه مهمته فحسب .. أليس كذلك ؟!

أجابه (عماد) فى هدوء :

ـ بالتأكيد .

ثم استدرك فى حزم :

ـ ولكن هذا لا يمنع حصولك على كل المعلومات ، اللازمة للقيام بمهمتك .. أعنى المعلومات الأساسية .

أجابه (شيمون) فى سرعة :

ـ بالطبع .

عاد (عماد) يسترخى على فراشه ، قائلاً بابتسامة ، لم ترق أبدًا لرجل (الموساد) :

ـ كل المعلومات الأساسية .

بدأ التوتر يسرى فى أعماق (شيمون) ، على الرغم من بروده الشهير ، مما جعل لمحة منه تتسلل إلى صوته ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

اتسعت ابتسامة (عماد) ، وهو يقول مسبلاً جفنيه :

ـ عظيم .

تلك الكلمة الأخيرة حولت توتر (شيمون) إلى انزعاج غاضب ، وفجرت ألف سؤال وسؤال فى أعماقه ..

ماذا هناك بالضبط ؟!

ما الذى يرمى إليه رجل المخابرات المصرى ؟!

ما هدفه من إلقاء كل هذه الأسئلة ؟!

ماذا يريد ؟!

ماذا ؟!

ماذا ؟!

ولأنه رجل مخابرات محترف ، أدرك فى أعماقه أن ما يفعله المصرى هو مناورة !

مناورة لكشف أى خداع يحيط به ..

أو أية خدعة تحاك حوله ..

لذا فمن الضرورى أن يلتزم هو الحذر ..

كل الحذر ..

وإلا ..

« إلى من أرسلوك بالضبط ؟! » ..

ألقى (عماد) السؤال فى هدوء ، لم يخل من نبرة صارمة حازمة ، جعلت (شيمون) ينهض واقفًا ، ويتطلّع إليه بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ اسمع يا هذا .. أنا هنا فى مهمة محدودة ، و ...

قاطعه (عماد) فجأة ، متسائلاً :

ـ ما اسمى بالضبط ؟!

كان السؤال مباغتًا بحق ، حتى إن (شيمون) قد شعر بموجة من الغضب والتوتر تتفجّر فى أعماقه ، وهو يكرّر فى دهشة :

ـ اسمك ؟!

أجابه (عماد) فى سرعة وحسم :

ـ نعم .. اسمى أنا .. اسم الرجل الذى أرسلوا إليه مندوبًا من رياسة الجمهورية شخصيًا ؟! ألم يخبروك باسمى ؟!

تضاعف الغضب فى أعماق (شيمون) ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أنهم لا يخبروننا أبدًا بالأسماء الحقيقية ، فى مثل هذه الـ ...

قاطعه (عماد) مرة أخرى ، قائلاً فى حزم :

ـ على الأقل سيخبرونك باسم كودى .. هكذا تحتم القواعد .. فعلى الأقل هناك اسم ما ، مدوّن على تذكرتى الطبية هنا .. أليس كذلك ؟!

كانت ابتسامة (عماد) هذه المرة تحمل معنى واحدًا ، لا يقبل الجدل ..

معنى قفز بغضب (شيمون) ، إلى الذروة ، وجعله يلوذ بالصمت التام لدقيقة كاملة ، اتسعت خلالها ابتسامة (عماد) ، وحملت قدرًا من السخرية ، وهو يقول :

- هناك اسم ما .. أليس كذلك يا .... ياسيد (عبد الرحمن) ؟!

رمقه (شيمون) بنظرة مقت ، لم يحاول حجبها أو إخفاءها هذه المرة ..

ومن أعمق أعماقه ، تصاعدت حمم غضب وثورة بلاحدود ..

تصاعدت حتى بلغت جمجمته ، وفجّرت كل مشاعره ، و ...

« فليكن .. »

نطق (شيمون) الكلمة بالعبرية هذه المرة ، قبل أن يسحب مسدسه بحركة حادة سريعة ، ويلصق فوهته بصدغ (عماد) ، مكملاً بكل غضب الدنيا :

- من الواضح أنك قد كشفت اللعبة بوسيلة ما .

اتسعت ابتسامة (عماد) أكثر ، وهو يقول :

- أعترف أنها كانت لعبة متقنة إلى أقصى حد .

قال (شيمون) فى غضب :

- هذا صحيح .

ثم ضاقت عيناه ، واستعاد صوته تلك البرودة الثلجية ، وهو يستطرد :

- مما يدفعنى إلى التساؤل ، عن كيفية كشفك للأمر .

هزّ (عماد) كتفيه ، قائلاً فى سخرية :

- سأترك هذا لخيالك .

انعقد حاجبا (شيمون) فى غضب ، وهو يهتف فى حدة :

- فليكن .. دعنا نبدأ بهذا .

قالها ، وهوى على رأس (عماد) بمسدسه ، فانتفض جسد هذا الأخير فى قوة ، وهوى فاقد الوعي مرة أخرى ، مما جعل أحد الأطباء يندفع داخل الحجرة ، هاتفًا :

- لماذا يا أدون (دوريل) ؟! لماذا ؟!

استدار إليه (شيمون) ، قائلاً فى حدة ، وهو يصوّب مسدسه إليه ؟!

- هل كنت تراقبنا يا هذا .

انتفض الطبيب الإسرائيلى فى رعب ، واختنق لسانه فى حلقه ، فاندفع زميله يهتف فى توتر :

- كلنا كنا نراقب ما يحدث يا سيّد (شيمون) ، عبر الزجاج مزدوج الانعكاس ، من الحجرة الأخرى ، كما أمرتنا تمامًا .

احتقن وجه (شيمون) بشدة هذه المرة، ولام نفسه ألف مرة فى أعماقه، على اندفاعه وتسرُّعه، واستسلامه لانفعالاته، على نفس النحو الذى انتقد فيه (جراهام) أمام الجميع، فالتقط نفسًا عميقًا، فى محاولة للسيطرة على توتره، ولاذ بالصمت لدقيقة كاملة، بذل خلالها جهدًا خرافيًا، ليستعيد هدوء نفسه، وبروده الأسطورى الشهير، قبل أن يشدّ قامته، قائلاً فى صرامة:

- من الواضح أنه قد كشف الأمر بوسيلة ما.

برز (دونهام) من خلف الأطباء، وهو يقول فى حيرة:

- ولكن كيف ؟! لقد راجعت الإجراءات كلها بنفسى مرتين، ولا توجد لمحة واحدة هنا، يمكن أن تكشف الأمر.

أجابه (شيمون) فى صرامة:

- هناك شىء ما حتمًا.. شىء لم ننتبه إليه، ولكنه أدركه على نحو ما.. أنت تعلم أنه لا يوجد نظام أمنى كامل.. هناك حتمًا ثغرة ما.

أشار (دونهام) بيده، قائلاً:

- ولماذا نبذل كل هذا الجهد ؟! لماذا لا نحقنه بمصل الحقيقة ؟! (بنتوثال الصوديوم).. ربما كانت وسيلة قديمة، ولكنها مازالت فعّالة، خاصة وأنه لم يتناول حتمًا أى عقار مضاد !

هزّ (شيمون) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- لن يصلح، فى حالته هذه.

هتف (دونهام):

- ولِمَ لا ؟!

أجابه رئيس فريق الأطباء فى توتر:

- فى حالته الصحية هذه قد يقتله (بنتوثال الصوديوم)، ولكنه لن يدفعه إلى قول أية حقائق.

عاد (دونهام) يهتف:

- ولماذا لا ...

قبل أن يتمّ تساؤله، قاطعه (شيمون) فى صرامة:

- كف عن التفكير يا (دافيد).. إنك تفسد كل الأمور.

تراجع (دونهام)، هاتفًا فى انزعاج:

- أنا ؟!

لوّح (شيمون) بسبّابته فى وجهه بغضب، قائلاً:

- نعم.. أنت يا (دونهام).. إلقاؤك القبض على زميلة (أدهم صبرى) ورفيقها، دون مبرّر حتمى، كان يكفى وحده؛ لأنسف رأسك بلا رحمة، أما إحضارهما إلى داخل السفارة ف...

قبل أن يتمّ قوله ، ارتفع فجأة رنين مميّز ، من هاتفه المحمول ، معلنًا استقباله لرسالة قصيرة ، فاحتقن وجهه ، وهو يقول فى غضب :

ـ لو أنها ما أتوقّعه فـ ...

لم يتم هو قوله هذه المرة ، وكأنما لم يجد داعيًا لهذا ، وهو يلتقط هاتفه المحمول من جيبه ، ويضغط أزراره فى سرعة ؛ لقراءة تلك الرسالة القصيرة ، التى لم تحمل رقم الهاتف الذى أرسلها ، مما ضاعف من غضبه ، قبل حتى أن يقرأ كلماتها الساخرة المقتضبة :

ـ حظ أفضل ، فى الجولة القادمة .. (أ . ص) .

وبحركة سريعة غاضبة ، أغلق (شيمون) هاتفه ، وألقاه فى جيبه ، و(دونهام) يسأله فى توتر :

ـ أهو من أتوقّعه ؟!

أجابه (شيمون) فى صرامة ، وهو يتلفت حوله :

ـ إنه يسخر منا .

ثم التقى حاجباه بشدة ، مع استطرادته الغاضبة :

ـ من داخلنا .

هتف (دونهام) فى عصبية :

ـ ذلك الـ ...

قاطعه (شيمون) فى حدة :

ـ ذلك الذى فشلت فى العثور عليه ، داخل جدران السفارة ، التى ترأس طاقم أمنها .

قال (دونهام) بنفس العصبية :

ـ سأعيد استجواب الجميع ، وسـ ...

قاطعه (شيمون) هذه المرة ، فى صرامة قاسية :

ـ سأتولّى أنا الأمر هذه المرة .

بدا وكأن الأمر لم يفاجئ (دونهام) تمامًا ، وهو يقول :

ـ أنت يا أدون (دوريل) .

أشار (شيمون) بسبابته ، قائلاً :

ـ نعم .. أنا يا (دافيد دونهام) .

وبدا وكأن عينيه قد ازدادتا ضيقًا ، وهو يضيف :

ـ وسأثبت للمصريين هذه المرة أننا الأكثر قوة ومهارة ، فى عالمنا هذا .. لكل المصريين ، ولرجلهم (أدهم صبرى) بالتحديد .

ولم يُعلّق (دونهام) هذه المرة أيضًا، ولكنه تطلّع إلى (شيمون) طويلاً، وقد أدرك من اللهجة الوحشية الشرسة القاسية، التى نطق بها عبارته الأخيرة، أن الجولة القادمة من الصراع ستكون رهيبة ..

رهيبة بحق .

* * *



٢ ـ القسوة ..

على الرغم من دقة الموقف، داخل السفارة الإسرائيلية فى (روما)، ومن فوهات المدافع الآلية، المصوبة إلى رأسيهما، لم يتمالك (أشرف) نفسه، وهو يتطلع إلى (منى) فى إعجاب؛ لتماسكها وقوتها، وهى تقول لرجل أمن السفارة فى صرامة مدهشة :

ـ ما فعلتموه يتجاوز كل القوانين والأعراف يا هذا .. إننا صحفيان من جريدة (هيرالد تريبيون)، وليس من حقكم مطاردتنا خارج السفارة، وإلقاء القبض علينا على هذا النحو المستفز، على أرض تخضع للسيادة الإيطالية .

زمجر رجل الأمن الإسرائيلى، وقال وهو يصوّب مدفعه إلى رأسها فى صرامة :

ـ نحن لا نشغل أنفسنا بتلك التعقيدات الدبلوماسية .. هناك محترفون يتولون أمورها .

أجابته فى حدة صارمة :

ـ وماذا عن الصحافة ؟! إننا سننشر كل ما فعلتموه، و ...

قاطعها صوت قاس كالفولاذ ، يقول فى صرامة :

ـ هراء .

استدارت مع (أشرف) إلى مصدر الصوت ، وما إن وقع بصرها على صاحبه ، حتى انعقد حاجباها فى شدة ، وذهنها يستعيد كل ما قرأته عنه ، فى الملفات الخاصة بجهاز (الموساد) ، فى المخابرات المصرية ، فى حين تقدّم (شيمون) داخل الحجرة ، وهو يتابع بنفس الصرامة القاسية :

ـ معلوماتنا تقول : إنك مصرية الجنسية ، وتعملين فى صفوف المخابرات العامة هناك .

حافظ (أشرف) على جمود ملامحه ، وهو يتطلّع إليه فى هدوء ، فى حين قالت (منى) ، فى صرامة لم تفارقها ، على الرغم من المفاجأة :

ـ أى قول هذا ؟!

أجابها (شيمون) ، وهو يجلس على أقرب مقعد إليه ، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، ثم يشبك أصابع كفيه أمام وجهه فى برود :

ـ القول الحق أيتها المقدّم (منى توفيق) .. لقد قرأت ملفك كله ، ومن الهراء أن تضيع الوقت فى محاولات إنكار عبثية .

عقدت (منى) ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول فى صرامة ، تحمل لمحة ساخرة :

ـ بالضبط .. من العبث أن أنكر هويتى الحقيقية ، أو أن أنكر تعرُّفى إياك فور دخولك ، يا ميجور (شيمون دوريل) ، يا رجل (الموساد) القاسى ، الذى كانوا يلقبونه قديمًا بجبل الثلج ، قبل أن تشرف بنفسك على الإجراءات الانتقامية فى معسكر (جنين) الذى أذل أبطاله ناصيتكم ، وأجبروكم على الانسحاب ، وطلب وقف إطلاق النار ، قبل أن تنفد ذخيرتهم عن آخرها ، ويضطرون للاستسلام ، حفاظًا على أرواح عائلاتهم(*) ..

غمغم (شيمون) فى بطء :

ـ لقد انتصرنا عليهم فى النهاية ، وهذا هو المهم .

قالت فى سخرية :

ـ هل تؤمنون حقًا ، بأن ما فعلتموه هناك ، يعدّ انتصارًا ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ بالطبع .. الانتصار هو أن تظفر بخصمك فى النهاية .

(★) واقعة حقيقية ، حدثت عام ٢٠٠٢ م ، مع الاجتياح الإسرائيلى الوحشى لمخيم جنين ، وعدة أماكن أخرى فى (فلسطين) ، دون وازع من ضمير أو احترام للقوانين والأعراف والمعاهدات الدولية .

قالت فى سرعة :

- هذا يتوقّف على مفهوم كلمة (النهاية) .

انعقد حاجباه فى شدة ، قبل أن يقول فى حدة :

- هل تتصورين أنه باستطاعتك توريطى ، فى مناقشة فلسفية كهذه .

قالت بنفس السرعة :

- كلا بالطبع .

ثم استدركت بابتسامة ساخرة :

- المناقشات الفلسفية تحتاج إلى عقول مفكّرة .

احتقن وجهه ، عندما أدرك ما تعنيه ، وهبّ من مقعده ، قائلاً فى حدة :

- فليكن أيتها المتحذلقة .

ابتسم (أشرف) ، مع الانفعال الذى أصاب (شيمون) ، وغمغم فى هدوء عجيب :

- يبدو أنك قد أذبت جبل الجليد يا سيادة المقدّم .

أدار (شيمون) بصره إليه بحركة حادة ، قبل أن يقول فى صرامة :

- ومن هذا بالضبط ؟!

هزّ (أشرف) كتفيه ، قائلاً :

- هل ستؤذى مشاعرى ، بقولك إنه ليس لديك ملفٌ عنى ؟!

صوته ولهجته ، والأسلوب الذى نطق به كلماته ، جعل قلب (منى) يخفق بين ضلوعها فى قوة ، فى حين انعقد حاجبا (شيمون) بشدة ، وهو يتطلّع إليه مليًا ، قبل أن يلتقط جهاز الاتصال المحدود من حزامه ، ويضغط زره ، قائلاً :

- (دونهام) .. لا داعى لبذل الكثير من الجهد .. أعتقد أننى قد عثرت على (أدهم صبرى) بالفعل .

وخفق قلب (منى) بين ضلوعها مرة أخرى ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

ارتسمت ابتسامة هادئة تمامًا ، على شفتى (لورا كيلرمان) ، عميلة منظمة (X) الجاسوسية الإجرامية ، وهى تغادر مطار (روما) ، وتوقفت لحظة عند المخرج ؛ لتلتقط نفسًا عميقًا من الهواء البارد ، مغمغمة :

- كم أعشق (إيطاليا) ، فى هذا الوقت من العام .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى سمعت إلى جوارها صوتًا يقول فى احترام :

- سيدة (كيلرمان) .. حمدًا لله على سلامتك ، ومرحبًا بك فى (روما) .

استدارت إليه (لورا) فى هدوء شديد، وابتسمت قائلة :

ـ أظنك (ألبرتو) .. أليس كذلك ؟!

التقط (ألبرتو) حقيبتها الوحيدة الأنيقة، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

ـ بلى ياسيدتى .. مرحبًا بك .. لقد أعددنا كل اللازم لاستقبالك هنا .

غمغمت فى هدوء واثق :

ـ عظيم .

قادها إلى سيارة بيضاء أنيقة، وانحنى فى احترام شديد، وهو يفتح لها بابها الخلفى، ويكرر على نحو ممل :

ـ مرحبًا بك .

دلفت إلى السيارة فى أناقة، وخلعت قفازيها الحريريين فى هدوء، وهى تقول :

ـ هل اعتدتم الترحيب بكل من يصل إليكم، على هذا النحو ؟!

ابتسم (ألبرتو)، وهو يدلف إلى جوارها، ويشير إلى السائق بالانطلاق، قائلاً :

ـ كلا بالطبع يا سيدة (كيلرمان)، ولكن مستر (X) أمر بمعاملة خاصة لك .

تطلعت إليه لحظة فى صمت، قبل أن تقول بلهجة عجيبة، حملت رنة ساخرة، لم ترق له أبدًا :

ـ معاملة خاصة ؟! يا له من مصطلح !

ردد فى حذر، لم يدر له سببًا واضحًا :

ـ نعم يا سيدتى .. معاملة خاصة جدًا ..

سألته فجأة :

ـ من أى نوع ؟!

نطقتها على نحو تضاعفت فيه رنة السخرية، فأجاب بحذر أكثر :

ـ من النوع الممتاز يا سيدتى .

انتقلت السخرية إلى شفتيها وعينيها، وهى تقول :

ـ عظيم .. عظيم .

ثم استرخت تمامًا فى مقعدها، وتطلعت عبر النافذة، مستطردة :

ـ جميلة هى (روما) .

غمغم فى توتر مكتوم :

ـ بالتأكيد .

انطلقت بهما السيارة ، وقد شملهما صمت عجيب ، يوحى بأن كليهما غارق فى تفكير عميق ، قبل أن تقطع (لورا) حبل الصمت هذا ، قائلة فى هدوء شديد .. ربما أشد مما ينبغى :

ـ هل سأقيم خارج (روما) ؟!

اعتدل (ألبرتو) فى مقعده ، قائلاً فى توتر :

ـ خارج (روما) ؟!

أومأت برأسها ، قائلة :

ـ بالتأكيد ، فوفقًا لمعلوماتى ، السيارة تتجاوز الآن حدود المدينة ، وتنطلق فى طريق (نابولى) .

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى توتر :

ـ من الواضح أنك تعرفين (روما) جيدًا ياسيدة (كيلرمان) .

قالت بابتسامة هادئة :

ـ أكنت تتوقع غير هذا ؟!

صمت بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ كلا .

ثم أشار بيده إلى السائق ، فانحرف بالسيارة إلى طريق جانبى ، على نحو جعل (لورا) تتساءل ، دون أن يفارقها هدوؤها :

ـ إننا خارج الطريق الرئيسى الآن .. أليس كذلك ؟!

أجابها (ألبرتو) ، فى حزم أكثر :

ـ هذا صحيح ياسيدتى .. فكما أخبرتك من قبل ، مستر (X) أمر لك بمعاملة خاصة جدًا .

قالت فى حزم مماثل ، وهى ترمقه بنظرة صارمة :

ـ وأنا سألتك من أى نوع .

سحب مسدسه من حزامه ، بحركة مفاجئة سريعة ، وهو يقول فى شراسة :

ـ هذا النوع .

ومع قوله ، ضغط السائق فرامل السيارة فى قوة ..

ودوت الرصاصة ..

القاتلة ..

* * *

فجأة ، انطلقت ضحكة مجلجلة ، فى تلك الحجرة ، داخل السفارة الإسرائيلية فى (روما) ، والتى يحتجز فيها رجال الأمن (منى) و(أشرف) ..

وفى دهشة ، حدّق الجميع فى صاحب الضحكة ، وعلى رأسهم (منى) ..

فالضحكة أطلقها (أشرف) نفسه ، على نحو مستفز ، جعل (شيمون) يقول فى صرامة شديدة :

ـ لن يفلح هذا يا سيّد (أدهم) .

أجابه (أشرف) فى سخرية :

ـ ما قلته هو نفسه سبب ضحكى يا سيّد (شيمون) .

هتف به (شيمون) :

ـ هل تعتقد أنك ستضمنى إلى قائمة المخدوعين ، بهذا الأسلوب الساذج ؟!

مال (أشرف) نحوه ، قائلاً بنفس السخرية :

ـ إذن فأنت تعتقد بالفعل أننى سيادة العميد (أدهم) ؟!

قال (شيمون) فى سرعة وحزم :

ـ دون أدنى شك .

انعقد حاجبا (منى) فى توتر ، عندما انطلقت ضحكة أخرى ساخرة ، من بين شفتى (أشرف) ، وهو يقول :

ـ ألا تعتقد أن هذا يكفى للضحك ؟!

احتقن وجه (شيمون) ، وهو يندفع نحوه ، قائلاً :

ـ كلا .

قالها ، وهو ينقضّ على (أشرف) ، ويجذب شعره فى قوة ، جعلت (أشرف) يهتف ، فى سخرية ، لم تخفها رنة الألم :

ـ رويدك يا هذا .. لن يمكنك أن تنتزع شيئًا عن وجهى .

واستعاد ابتسامته ، مضيفًا :

ـ لأن كل ما تراه أمامك هو وجهى الحقيقى .

ازداد انعقاد حاجبى (منى) ، وهى تغمغم :

ـ لست هو ؟!

التفت إليها (أشرف) ، قائلاً :

ـ بالطبع يا سيادة المقدّم .. إنه لفخر لى ، سأحمله ما حييت ، أنك تصوّرت أننى سيادة العميد (أدهم) ، ولكننى لست هو فى الواقع ، ولم أكن هو أبدًا .

تراجع (شيمون) ، وهو يحـدق فيه باستنكار غاضب ، قبل أن يهتف :

ـ أين (أدهم) إذن ؟! من هو ؟!



قالها ، وهو ينقضّ على (أشرف) ، ويجذب شعره فى قوة ، جعلت (أشرف) يهتف ، فى سخرية ..

بدت حيرة صادقة فى عينى (منى) ، فى حين عاد (أشرف) يبتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ صدقنى .. أنا أكثر شوقًا منك ، لمعرفة جواب هذا السؤال .

اتسعت عينا (شيمون) لحظة ، عن آخرهما ، قبل أن ينطلق السؤال فى عقله ملتهبًا ...

كيف وقع فى هذا الخطأ الساذج ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

كيف جرفته مشاعره ، بعيدًا عن كل قواعد العقل والمنطق ؟!

(أدهم) داخل السفارة ، قبل حتى أن يُحضر (دونهام) زميلته ورفيقها !

وهذا يعنى استحالة أن يكون هو نفسه رفيقها ..

أمر أبسط من أن يخطئ فيه محترف مثله !

فيا للعار !

ولكن ليس هذا وقت الشعور بالأسف والأسى ، فمازال الخطر داخل أسوار السفارة ، ومازال السؤال ذاته يطرح نفسه فى إلحاح مستفز ..

من هو (أدهم) إذن ؟!

من ؟!

من ؟!

وقبل أن يتطوّر السؤال فى رأسه ، أو يطرح نفسه على لسانه ، اندفع أحد رجال أمن السفارة إلى الحجـرة ، هاتفًا ، وهو يلهث فى انفعال :

ـ أدون (دوريل) .. لن يمكنك أن تتصوّر ما يحدث .

وبحركة حادة ، استدار إليه (شيمون) ، قائلاً :

ـ وماذا يحدث ؟!

اتجه الرجل نحو النافذة المانعة للصوت ، وفتحها بحركـة عصبية ، هاتفًا :

ـ انظر بنفسك .

ومع الضجيج والضوضاء ، اللذين عبرا النافذة المفتوحة ، اندفع (شيمون) إليها ، والتقى حاجباه بمنتهى الشدة ..

فما رآه أمامه كان مفاجئًا وعجيبًا !!

إلى أقصى حد !

* * *

« الأمريكيون حلوا شفرة اتصالنا .. »

نطق المقدّم (سمير) ، رجل المخابرات المصرى فى (روما) العبارة ، وهو يجلس أمام الكمبيوتر ، قبل أن يستدير إلى زميله الرائد (ممدوح) ، مستطردًا :

ـ الآن سيعرفون ما يسعى إليه سيادة العميد (أدهم) .

ألقى (ممدوح) نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ لو أن الأمور تسير على ما يرام ، فهذا يعنى أن سيادة العميد يضع اللمسات الأخيرة على خطته الآن .

ثم أشار بسبابته ، مستطردًا فى حزم :

ـ ويعنى أيضًا أنه من الضرورى أن أتحرك فورًا .

هتف (سمير) :

ـ وماذا تنتظر إذن باللّه عليك ؟!

اندفع (ممدوح) يغادر المكان ، ووثب داخل سيارته ، وانطلق بها على الفور ، وهو يغمغم فى توتر :

ـ رباه ! كل شىء يسير وفقًا للخطـة ، وعلى الرغم من هذا ، كل ذرة فى كيانى تشعر بالتوتر والقلق .

قالها ، وهزّ رأسه فى قوة ، وهو يواصل الانطلاق بالسيارة نحو الهدف ، الذى حدّده (أدهم) مسبقًا ..

وفى نفس اللحظة ، كانت أصابع (سمير) تتقافز على أزرار الكمبيوتر ، وهو يرسل آخر المعلومات إلى القيادة فى (القاهرة) ، عبر قناة انترنت جديدة مؤمّنة ، و ..

وفجأة ، التقطت أذناه ما تبثه القناة الإخبارية الإيطالية ، فتجمّدت أصابعه على أزرار الكمبيوتر ، قبل أن يلتفت إلى شاشة التلفاز ، هاتفًا :

ـ رباه ! يا لها من فكرة عبقرية !

ولثانية أو ثانيتين ، ظلّ يحدّق فى الشاشة ذاهلاً ، قبل أن يتحوّل ذهوله وانفعاله كله إلى ضحكة مجلجلة ، أطلقها من أعمق أعماقه ، قبل أن يعود ببصره إلى شاشة الكمبيوتر ، وتعاود أصابعه تقافزها على أزراره ، قائلاً :

ـ عبقرى هو سيادة العميد (أدهم) .. عبقرى بحق .

ثم عاد يضحك ..

ويضحك ..

ويضحك ..

* * *

جيش من الصحفيين أحاط بالسفارة الإسرائيلية فى (روما) ..

حشد هائل من مصورى الصحف ، ورجال الإعلام ، فى مظاهرة صحفية ، جذبت عشرات المارة ، وفريق من رجال الشرطة ، الذين يحاولون عبثًا تنظيم الموقف كله ..

هذا ما وقع عليه بصر (شيمون دوريل) ، الذى هتف بكل الغضب :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه أحد رجال الأمن فى توتر :

ـ لا ريب فى أنه ذلك القتال ، خارج أسوار السفارة ، والذى أسفر عن انفجار دراجة آلية .. الصحافة والإعلام سيجذبهما حتمًا ما حدث ، عندما تجاوز بعض الزملاء أسوار السفارة ؛ لإلقاء القبض على هذين المصريين .

التفت إليه (شيمون) ، قائلاً فى غضب :

ـ أرأيتم ما يحدث ، عندما تتحركون دون أوامر منى .. لقد أفسدتم بخطوة طائشة واحدة ، كل ما خططت له منذ ...

قاطعه فجأة هتاف رجل أمن آخر ، وهو يشير بسبّابته إلى حديقة السفارة :

ـ يا للهول ! ما هذا بالضبط ؟!

استدار (شيمون) فى سرعة ، إلى حيث يشير رجل الأمن الآخر ، ولم يكد يبصر الموقف ، حتى تفجر من أعمق أعماقه غضب هادر ..

غضب رهيب ، بلا حدود ..

فهناك ، فى حديقة السفارة ، كان اثنان من رجال الأمن الإسرائيليين ، يدفعان أمامهما محفة طبية ، رقد عليها (عماد) الفاقد الوعى ، ويرافقهما أحد الأطباء ، الذين تم استدعاؤهم من (تل أبيب) ، وكلهم يتجهون نحو باب السفارة الرئيسى ، تتابعهم عيون الصحفيين ، وعدسات المصورين ، و ...

« أى عبث شيطانى هذا ؟! »

صرخ (شيمون) بالعبارة ، وهو ينتزع هاتفه المحمول من جيبه بمنتهى الحدة ، ويضغط أزراره فى سرعة ، هاتفًا :

ـ (دونهام) .. ماذا يحدث بالضبط ؟! من أمر رجالك بإخراج ذلك المتسلِّل المصرى من هنا ؟! لقد كشفتم كل ما جاهدنا لإخفائه أيها الأغبياء .

أتاه صوت (دونهام) مرتبكًا ، عبر هاتفه المحمول ، وهو يقول :

ـ ولكن .. ولكننا ننفذ أوامرك يا أدون (دوريل) .

انعقد حاجبا (شيمون) فى شدة ، وهو يهتف مستنكرًا ومستهجنًا :

ـ أوامرى أنا ؟!

أجابه (دونهام) ، فى ارتباك أكثر :

ـ نعم يا أدون (دوريل) .. أوامرك أنت .. لقد اتصلت بى من هاتفك المحمول ، منذ دقائق قليلة ، وأمرتنى بإخراج المصرى ، حتى لا نثير غضب الصحافة الإيطالية .

اتسعت عينا (شيمون) عن آخرهما ، وهو يهتف ، بلهجة بدت أقرب إلى الذعر :

ـ أنا ؟!

رسم ذهنه ، فى ثانية واحدة ، تلك المشاهد التى لم يرها ..

مشهد (أدهم) ، وهو يستخدم وسيلة رقمية حديثة ، من داخل السفارة ، ليتحدّث إلى هاتف (دونهام) المحمول ، ويستغل موهبته الفذة فى تقليد الأصوات ، ليأمره بإخراج المتسلِّل ، باعتباره هو .. (شيمون دوريل) ..

وبكل غضب الدنيا ، هتف (شيمون) :

ـ فليكن يا (دونهام) .. سنناقش هذا فيما بعد .. المهم

ألا يعبر ذلك المصرى الفاقد الوعى أسوار السفارة ، بأى ثمن كان .

قال (دونهام) فى حيرة :

ـ هل سنمنع خروجه ، بعد أن رآه الجميع على هذا النحو ؟!

صاح به (شيمون) فى ثورة :

ـ فليذهب الإعلام ، ولتذهب صحافة الدنيا إلى الجحيم .. لن يخرج هذا المصرى من هنا ، إلا على جثتى .

قالت (منى) فى سخرية ، وهى تعقد ساعديها أمام صدرها :

ـ عجبًا ! يبدو أن جبل الجليد قد تحوّل إلى بركان من الحمم ..

ضحك (أشرف) ، قائلاً :

ـ أكاد أسمع صوت سيادة العميد (أدهم) ، فهو وحده ، من دون البشر ، قادر على إحداث هذا التحوّل المدهش ، و ...

قاطعه (شيمون) ، وهو يهتف برجاله فى حدة :

ـ لو نطق أحدهما بحرف واحد ، انسفوا رأسيهما فورًا ، ودون إنذار إضافى .

جذب رجال أمن السفارة إبر مدافعهم الآلية القصيرة ، وأحدهم يهتف فى حماسة :

ـ على الرحب والسعة ، يا أدون (دوريل) .

عاد (شيمون) ببصره إلى حديقة السفارة ، واشتعلت الحمم فى أعماقه أكثر وأكثر ، عندما رأى الرجال يقتربون بالمحفة أكثر وأكثر من البوّابة ..

بل لقد بدأ حرّاس البوّابة فى فتحها بالفعل ..

ومرة أخرى ، صرخ (شيمون) ، عبر هاتفه المحمول :

ـ مرهم بالتراجع يا (دونهام) .. مرهم بالتراجع فورًا .

ولكنه لم يتلقَ سوى الصمت المطبق ، من الجانب الآخر ، فأزاح هاتفه جانبًا ، ولوّح بذراعيه ، صائحًا بكل قوته :

ـ تراجعوا .. لا تخرجوا المصرى .

ولكن الضوضاء والضجيج فى الخارج حجبا صيحته عن آذان رجال الأمن وحراسة البوّابة ، فصاح فى ثورة ، ملتفتًا إلى رجال الأمن فى الحجرة :

ـ أسرعوا يا رجال .. لابد من منعهم من إخراج المصرى بأى ثمن .

كان يدرك أنه حتى لو تحرك الرجال بأقصى سرعتهم ، فوصولهم إلى بوّابة السفارة ، قبل خروج المصرى الفاقد الوعى منها ، يعد مستحيلاً تمامًا .

وبكل غضب الدنيا ، صرخ :

ـ كل هذا بسبب (دونهام) الغبى .. كل هذا بسبب ..

بتر عبارته بغتة ، وسرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وعقله يسترجع عدة أحداث ، فى آن واحد تقريبًا ..

(دونهام) وهو يقاطعه فجأة ، داخل حجرة العناية الفائقة ، فى نفس اللحظة ، التى هم فيها المصرى بالإفصاح عن مكان البطاقة الرقمية ..

حديثه الهامس بالعبرية ..

وموقفه هذا ..

و ...

وبكل غضب ومقت الدنيا ، هتف ، وهو يسحب مسدسه :

ـ آه .. (دونهام) .

ثم أدار فوهة مسدسه نحو حديقة السفارة ، مستطردًا فى شراسة وحشية مخيفة :

ـ إن لم نظفر به ، فلن يظفر به أحد .

أدركت (منى) ، وأدرك (أشرف) ، فى لحظة واحدة ، ما الذى يعنيه الإسرائيلى بالضبط ، فوثبت (منى) نحوه كنمرة شرسة ، وهى تصرخ :

ـ لا .

ومع وثبتها ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية ..

وانطلقت الرصاصات ..

وتحوّل المكان كله إلى جحيم ..

جحيم حقيقى .

* * *



٣ ـ الغضب ..

عندما وقع اختيار مستر (X) على (ألبرتو) بالتحديد ، ليتابع أوامره فى (روما) ، كان واثقًا من حسن اختياره إلى أقصى حد ..

فـ (ألبرتو) رجل مخابرات إيطالى سابق ، وقاتل محترف حالى ، يتمتع بذكاء فوق المتوسط ، وسرعة بديهة ، وقدرة على التعامل مع المواقف العصيبة ، كما يجيد عددًا لا بأس به ، من اللغات الأوروبية والشرقية ..

ولأن مستر (X) قد اتخذ قراره بالقضاء على (لورا كيلرمان) ، التى لم يعد يثق بانتمائها وولائها ، فقد قرّر أن يسند هذه المهمة لرجله (ألبرتو) ؛ لضمان سرعة ودقة التنفيذ ..

ولقد خطّط (ألبرتو) للعملية بدقة كعادته ، فالتقط (لورا) من المطار مباشرة ، واصطحبها إلى منطقة منعزلة ، خارج طريق (روما) (نابولى) ، وألصق فوهة مسدسه بصدغها ، و ...

ولكن (لورا) لم تقف ساكنة ، أمام كل هذا ..

فما إن التصقت فوهة مسدس (ألبرتو) الباردة بصدغها ، مع توقف السيارة المفاجئ ، حتى مالت إلى الخلف

بحركة سريعة ، وارتفعت يدها تقبض على معصم (ألبرتو) ، وتلويه بقوة مباغتة ، قائلة :

ـ ليس بهذه السهولة أيها الوغد .

مالت فوهة المسدس بحركة حادة ، فى نفس اللحظة التى ضغط فيها (ألبرتو) زناد مسدسه ..

فانطلقت الرصاصة ..

انطلقت لتنسف رأس سائق السيارة ، الذى تفجّرت منه الدماء ، لتتناثر على الزجاج الأمامى فى عنف ..

وقبل حتى أن يستوعب (ألبرتو) ما حدث ، انتزعت (لورا) من حزامها دبوسًا معدنيًا طويلاً ، يبدو أشبه بحلية أنيقة ، فصاح بها فى غضب ، وهو ينتزع معصمه من بين أصابعها :

ـ هل تتصوّرين أنك ستقاتلين بهذا الشىء السخيف ؟!

دفعت الدبوس المعدنى نحو عنقه ، فى قوة وسرعة ، وهى تقول فى حزم :

ـ بل أنا واثقة من هذا .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، عندما انغرس الدبوس المعدنى

حتى آخره ، فى وريده العنقى ، وانطلقت من حلقه شهقة مكتومة ، وهى تتابع :

ـ فربما لا يكفى حجم دبوسى هذا لقتلك .

ثم تراجعت فى سرعة ، مضيفة فى لهجة بدت ساخرة ، على الرغم من وحشية الموقف :

ـ ولكن ماذا عن السم الزعاف ، الذى طليته به ؟!

أطلق (ألبرتو) شهقة أخرى ، على الرغم منه ، مع التقلصات العنيفة ، فى عنقه وعضلاته واتسعت عيناه عن آخرهما ، مع الانتفاضات القوية ، فى كل جزء من جسده ، فى حين استرخت هى تمامًا ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة جذلة ، والتقطت سيجارة من علبتها ، وأشعلتها فى استمتاع ، وكأنها تتابع فيلمًا هزليًا ، وجسد (ألبرتو) ينتفض ..

وينتفض ..

وينتفض ..

ثم سقط مسدسه عند قدميها ..

وأطلق شهقة أخيرة ..

وسقط جثة هامدة ..

وفى هدوء عجيب ، نفثت (لورا) دخان سيجارتها ، وهى تتمتم بابتسامة ساخرة :

ـ أكنت تتصوَّر أن التخلُّص منى سهل إلى هذا الحد ، يا مستر (X) ؟!

قالتها ، وأدارت عينيها خلفها ، فى نفس اللحظة التى برزت فيها سيارة أنيقة صغيرة ، إيطالية الصنع ، وتوقَّفت خلف سيارة (ألبرتو) تمامًا ، فغمغمت (لورا) ، وهى تغادر السيارة الأخيرة :

ـ عظيم .. كل شىء يسير ، وفقًا للتوقيت المتفق عليه .

وفى هدوء ، دلفت إلى المقعد الخلفى للسيارة الأخرى ، وأشارت إلى سائقها ، الذى بدا شديد الهدوء ، قائلة بلهجة آمرة :

ـ هيا بنا .. المكان هنا تنبعث منه رائحة سخيفة ، لا تروق لى أبدًا .

سألها السائق فى هدوء :

ـ هل نترك سيارتهما هنا ، أم نشعل فيها النيران ؟!

قالت فى حزم :

ـ ليس لدينا وقت لإشعال النيران .

ثم نفثت دخان سيجارتها ، مضيفة بابتسامة جذلة :

ـ فلست أطيق صبرًا على رؤية انفعال مستر (X) ، عندما أخبره بما حدث هنا .

قالتها ، فانطلق السائق بالسيارة على الفور ، فى حين أطلقت هى ضحكة عالية عابثة طويلة ..

ضحكة مألوفة ..

مألوفة تمامًا ..

* * *

فى نفس اللحظة ، التى انقضت فيها (منى) على (شيمون) ، وأمسكت معصمه فى قوة ، وثب (أشرف) كالفهد ، نحو رجال أمن السفارة الإسرائيلية الأربعة فى الحجرة ، هاتفًا :

ـ معذرة أيها الأوغاد .. هذا ليس أمرًا شخصيًا .

ركلت قدمه مدفع أحدهم ، ثم دارت لتحطم أنف الثانى ، وهو يتابع :

ـ ولكننى أبغض الحقارة فى المعتاد .

أربكت تلك الانقضاضة المزدوجة رجلى الأمن الآخرين ، فتراجع أحدهما ، وهو يرفع فوهة مدفعه الآلى نحو (أشرف) ،

فى حين استدار الثانى ، يصوّب مدفعه إلى (منى) ، التى لكمت (شيمون) فى عنف ، صائحة :

ـ على جثتى .

تلقَّى (شيمون) اللكمة ، وتراجع بحركة حادة ، إلا أنه لم يلبث أن اندفع نحوها مرة أخرى ، وهو يهتف بكل وحشية الدنيا :

ـ فليكن أيتها المصرية .. سأفعلها على جثتك .

رأى (أشرف) فوهة مسدس (شيمون) ، ترتفع نحو (منى) ، فى نفس اللحظة التى هم فيها رجل الأمن الإسرائيلى الثانى ، بضغط زناد مدفعه الآلى ، المصوّب أيضًا نحوها ، فوثب محاولاً مؤازرتها ، وهو يهتف :

ـ حذار أيتها المقدَّم .

احتل جسده ذلك الفراغ ، بين جسدها وفوهة المدفع الآلى ، الذى انطلقت رصاصاته فى اللحظة ذاتها ..

واخترقت الرصاصات كلها ظهره ..

بمنتهى العنف ..

ومنتهى القوة .

وعلى الرغم من انحناءتها المدهشة ، التى تفادت بها رصاصة (شيمون) ، صرخت (منى) :

- (أشرف) .. لا ..

لكنه يسقط أرضًا ، فى نفس اللحظة التى استدار فيها (شيمون) ، مصوبًا مسدسه إلى جسد (عماد) ، الذى كاد يتجاوز أسوار السفارة بالفعل ، فصرخت بكل الغضب ، وهى تثب متعلقة بعنقه :

- قلت لك على جثتى .

صرخ (شيمون) فى غضب هادر ، وهو يحاول انتزاع ذراعيها من حول عنقه ، وتضاعف غضبه ألف مرة ، عندما رأى (دونهام) يندفع نحو بوابة السفارة ، هاتفًا برجال أمنها :

- أسرعوا .. أخرجوه فورًا ، قبل أن تلتهمنا الصحافة .

وصرخ (شيمون) :

- لا .. لن يستعيده المصريون أبدًا .

غرست (منى) أظفارها فى عنقه ، فى هذه اللحظة ، صائحة :

- هذا ما تتمناه أيها الوغد .

صرخ (شيمون) مرة أخرى ، وقد شملته ثورة عارمة ، جعلته يطلق رصاصاته فى سقف الحجرة ، فاندفع رجل الأمن المتبقى نحوه ، وهوى بكعب مدفعه على مؤخرة عنق (منى) ، بكل ما يملك من قوة ..

وانتفض جسد (منى) فى عنف .

انتفض فى نفس اللحظة ، التى شاهد فيها (شيمون) (راشيل) ، امرأة (الموساد) الشرسة ، وهى تندفع نحو المبنى ، محاولة معرفة سر دوى الرصاصات فى داخله ، فدفع جسده نحو النافذة ، صائحًا :

- (راشيل) .. المصرى .. المصرى يا (راشيل) .

كانت (منى) تقاوم الغيبوبة بمنتهى الإصرار والقوة ، إلا أن رجل الأمن هوى على مؤخرة عنقها بضربة أكثر عنفًا ، فى نفس اللحظة التى فهمت فيها (راشيل) ما يقصده (شيمون) بصيحته ، فانتزعت مسدسها ، وانطلقت تعدو نحو بوابة السفارة ، صائحة :

- أغلقوا البوابة .. لا تخرجوا المتسلل .

كان رجال الصحافة والإعلام يتابعون الموقف فى دهشة مبهورة ، ومصابيح آلات تصويرهم تسطع فى سرعة وغزارة ، إلا أن (راشيل) لم تبال ، وهى تندفع نحو المحفة ، التى تحمل جسد (عماد) ، ومسدسها مصوب إلى رأسه ، و ...

وفجأة ، اعترض (دونهام) طريقها ، وهو يقول فى صرامة :

- ليس بهذه البساطة .

نطقها بصوته ولهجته الحقيقيين ، وليس بأسلوب مسئول أمن السفارة ، الذى ينتحل شخصيته ، فزمجرت (راشيل) ، صائحة :

- آه .. إذن فهو أنت .

تحرك (أدهم) فى سرعة ، وأمسك معصمها ؛ ليمنعها من إطلاق النار على (عماد) ، قائلاً :

- عظيم أنك قد أدركت هذا .

صرخت ، وهى تهوى بقبضتها على وجهه ، صائحة :

- معلوماتى تقول : إنك لا تقاتل النساء .

تلقّى لكمتها على ساعده ، وهو يقول فى حزم :

- أضيفى معلومة أخرى إليها إذن .

وهوى على فكها بلكمة ساحقة ، مستطردًا :

- إننى مستعد لتجاوز كل القواعد ، من أجل (مصر) .

أطلقت (راشيل) صرخة غضب ، وهى تفقد توازنها ، وتسقط على ظهرها أرضًا ، فى نفس اللحظة التى استدار فيها (أدهم) ، وشاهد المحفة تعبر بوابة السفارة الإسرائيلية بالفعل ، والرائد (ممدوح) يندفع نحوها ، وفقًا للخطة ، و ...

وفجأة ، دوت رصاصة من مبنى السفارة .

وانتفض جسد (عماد) فى عنف ، فوق محفته ..

ومن قمة رأسه ، تفجّرت الدماء فى قوة ..

وشهق رجال الصحافة ..

وتراجعوا فى ارتياع ..

وسطعت مصابيح تصويرهم أكثر وأكثر ..

وانعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يستدير إلى تلك النافذة ، التى وقف فيها (شيمون) ، ممسكًا أحد مدافع رجال الأمن فى قوة ، والدخان يتصاعد من فوهته ..

وكانت عيناه تتألّقان فى ظفر وحشى رهيب ..

ظفر يعنى أنه قد ربح الجولة ..

وبكل جدارة ..

وعلى الرغم من فوهات مسدسات رجال الأمن ، التى ارتفعت نحوه ، إثر صيحة أطلقها (شيمون) ، خلال لحظة السكون ، التى تلت إطلاقه النار على رأس (عماد) ، شعر (أدهم) بغضب عارم يتفجّر فى أعماقه ..

غضب تجاوز الحدود ..

كل الحدود ..

* * *

انعقد حاجبا مدير المخابرات المصرية فى شدة ، وهو يشاهد ذلك الفيلم ، الذى نقلته وكالات الأنباء العالمية ، لما دار فى مبنى السفارة الإسرائيلية فى (روما) ، قبل أن يقول فى مرارة :

– إذن فقد قتل هؤلاء الأوغاد (عماد) و(أشرف) ، دون أن يبالوا بعدسات التصوير ، أو جيش رجال الإعلام ، الذى أحاط بالسفارة ! يا للحقارة !

قال مساعده فى أسى ، وهو يتابع الشريط المسجَّل للواقعة بدوره :

– ليس هذا فحسب ياسيِّدى ، ولكن الإسرائيليين ألقوا القبض على سيادة العميد (أدهم) ، والمقدَّم (منى) أيضًا ، ويحتجزونهما داخل سفارتهم ، التى تعتبر أرضًا إسرائيلية ، وفقًا للقانون الدولى .

قال المدير فى غضب :

– يمكننا أن نتقدَّم باحتجاج رسمى ، لاحتجازهم مواطنين مصريين ، داخل سفارتهم ، دون وجه حق .

تنهَّد المساعد ، قائلاً :

– خبراء الشئون القانونية يدرسون هذا الأمر ياسيِّدى ، ولكن الإسرائيليين سيطلبون تفسيرًا رسميًا ، لوجود سيادة العميد (أدهم) ، والمقدَّم (منى) ، داخل سفارتهم ، والقانون الدولى يمنحهم الحق فى الدفاع عن السفارة ، بكل الوسائل الممكنة .

تطلَّع إليه المدير بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يعود إلى مكتبه ، ويجلس خلفه ، قائلاً :

– ياله من موقف !

مطَّ المساعد شفتيه ، وقال بنفس الأسى :

– أظننا قد خسرنا هذه العملية ياسيِّدى .

أجابه المدير ، فى سرعة وحزم :

– بل خسرنا جولة فحسب يارجل .

وتراجع فى مقعده ، مشيرًا بيده ، ومستطردًا :

– (ن – ١) مازال هناك .

قال المساعد فى حذر :

– فى قبضة الإسرائيليين .

أجابه المدير بنفس السرعة والحزم :

ـ ولكنه هناك .

ثم شبك أصابع كفيه أمام وجهه ، مضيفًا :

ـ وهذا يعنى أن المباراة مازالت مستمرة ، حتى لحظة النهاية .

أومأ المساعد برأسه إيجابًا ، وقال فى حذر أكثر :

ـ هذا لو ظل سيادة العميد (أدهم) حتى النهاية !

ولم يعلّق مدير المخابرات هذه المرة ..

فقط انعقد حاجباه فى شدة ، وكلمة واحدة تتردد فى ذهنه .. لو ..

* * *

« أنت الآن فى قبضتنا يا سيّد (أدهم) .. »

نطق (شيمون) العبارة ، فى مزيج من التشفى والظفر ، وهو يجلس على مقعد وثير ، فى قبو السفارة الإسرائيلية ، متطلعًا إلى (أدهم) و(منى) ، اللذين تم وضعهما داخل زنزانة صغيرة ، ذات قضبان فولاذية قوية ، يصوب إليها رجال الأمن الإسرائيليين مدافعهم الآلية ، ثم اتسعت ابتسامته المقيتة ، وهو يضيف :

ـ وبإشارة واحدة من سبّابتى ، يمكن لرجالى إطلاق نيران

مدافعهم عليك ، وعلى زميلتك التى لم تستعد وعيها بعد ، وقتلكما بلا رحمة ، داخل مصيدة الفئران هذه .

أجابه (أدهم) فى هدوء عجيب :

ـ لو أننى فى مكانك ، لما ترددت لحظة فى فعل هذا .

قال (شيمون) فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

أجابه (أدهم) بنفس الهدوء :

ـ نعم .. حقًا أيها الوغد ، فمقتلى ربما يكون فرصتك الوحيدة ؛ لتنجو من قبضتى ، جزاء ما فعلت بزميلينا .

مطّ (شيمون) شفتيه ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ تمامًا كما يقول ملفك يا (أدهم) .. متحذلق ، مغرور ، ولا تستسلم قط للهزيمة .

أجابه (أدهم) فى سرعة :

ـ وأنت أيضًا أيها الوغد .. تمامًا كما يقول ملفك : حقير .. وضيع .. قذر .. لا تتوانى عن قتل مصاب فاقد الوعى ، ما دام هذا يحقق مصالحك .

قال (شيمون) ، فى شىء من الحدة :

ـ هذا ماينبغى أن يفعله أى وطنى مخلص يارجل .. أن يضع مصلحة بلاده فوق كل اعتبار ، وفوق كل قواعد أيضًا .

أدهشه أن أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ بالضبط .

تراجع (شيمون) فى مقعده ببطء حذر ، فتابع (أدهم) فى لهجة ، حملت على الرغم من هدوئها الشديد ، نبرة غاضبة مخيفة :

ـ لذا ، فينبغى أن تعلم أننى سأطرح كل قواعدى جانبًا ، عندما نلتقى فى المرة القادمة ، وسأدق عنقك بلا رحمة ، حتى لو كنت أعزلَ من السلاح .

انعقد حاجبا (شيمون) بشدة ، وهو يتطلّع إليه لنصف دقيقة كاملة فى صمت ، قبل أن يقول فى برود ، وهو ينهض من مقعده :

ـ سنرى ياسيِّد (أدهم) .. سنرى .

ثم اتجه إلى الخارج ، مضيفًا بلهجة آمرة :

ـ فليبق ثلاثة منكم لحراسته .. إننى أريده حيًّا ، عندما نستعيد تلك البطاقة الرقمية ، ولكن لو راودكم الشك ، فى أية حركة يقوم بها ، انسفوا رأسه ورأس زميلته بلا تردُّد .

غمغم أحد الرجال ، بابتسامة متشفية :

ـ سيسعدنى أن أفعل يا أدون (دوريل) .

واصل (شيمون) طريقه نحو الباب ، ثم توقّف لحظة ، قبل أن يلتفت إلى (أدهم) ، قائلاً :

ـ هناك أمر واحد لم أفهمه .

قال (أدهم) فى هدوء مدهش :

ـ أى أمر هذا ؟!

أشار (شيمون) بسبابته ، قائلاً :

ـ لقد أدركت كل مافعلته ، بعد أن عثرنا على (دونهلم) الحقيقى مقيدًا ومكممًا ، داخل حجرة مكتبه الخاصة ، التى أمرت رجال الأمن بعدم الاقتراب منها ، وأنت تنتحل شخصيته .. كانت عبقرية منك أن تصل فى هيئة مفتش شرطة إيطالى ، ثم تنتقل إلى شخصية مسئول أمن السفارة ؛ فوحده سيبقى خارج دائرة الشك طوال الوقت ، ولكن كيف أرسلت تلك الرسالة القصيرة ، وأنت تقف معى ، فى حجرة العناية المركَّزة ؟!

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، قائلاً :

ـ يبدو أنك لاتتابع التطورات التكنولوجية جيدًا أيها الوغد ؛

فالهواتف المحمولة الحديثة تمتلك خاصية بسيطة ، تسمح لك بتحديد موعد إرسال تلك الرسائل القصيرة مسبقًا .

وتراجع فى مقعده ، مستطردًا ، فى سخرية أكثر :

ـ لقد تصورت أنك ستسألنى ، كيف أدرك (عماد) خدعتك ، وكشف أمر خطتك المتقنة ؟!

قال (شيمون) فى صرامة :

ـ وما شأنك أنت بهذا ؟!

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً فى سخرية لاذعة :

ـ ما شأنى ؟! رباه ! يبدو أنك تتميزّ بالغباء والمحدودية أيضًا أيها الوغد ..

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ صحيح أننى كنت أتحدث إليك همسًا ، بصوت شديد الخفوت ، إلا أننى كنت أحدثك بالعبرية ، وليس بالعربية .

انعقد حاجبا (شيمون) أكثر ، وهو يقول فى توتر :

ـ من المستحيل أن يسمع زميلك ما قلناه .. الصوت كان خافتًا للغاية !

قال (أدهم) ، فى سخرية متحدية :

ـ ليس بالنسبة لخبير مثله ، فى قراءة حركات الشفاه .

احتقن وجه (شيمون) بشدة ، وهو يغمغم :

ـ أيها الـ ...

تراجع (أدهم) فى مقعده ، وابتسامته الساخرة تتسع ، على نحو مستفز ، فانتفض جسد (شيمون) ، وهو يقول :

ـ فليكن يا سيدّ (أدهم) .. الحكمة تقول : من يضحك أخيرًا ، يضحك كثيرًا .

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ سيكون من حسن حظك إذن أن تصاب بالصمم ؛ فصوت ضحكتى فى الجولة الأخيرة ، سيكون أعلى من أن تحتمله أذناك .

ازداد احتقان وجه (شيمون) ، وهو يقول :

ـ سنرى .

ثم اندفع يغادر القبو ، فى نفس اللحظة التى سعلت فيها (منى) ، وغمغمت ، وهى تستعيد وعيها :

ـ يا له من صداع رهيب .

التفت إليها (أدهم) ، وربّت عليها فى حنان ، قائلاً :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا عزيزتى .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدق فى وجهه غير مصدقة ، قبل أن تهتف فى لهفة ، وهى تهب جالسة :

- رباه ! (أدهم) .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

مع اعتدالها ، انتبهت إلى القضبان ، والرجال الثلاثة المسلحين ، وفوهات مدافعهم الآلية ، المصوبة إليهما ، فهتفت فى انزعاج :

- رباه ! أين نحن بالضبط ؟!

مرر أصابعه على شعرها ، فى محاولة لتهدئتها ، وهو يجيب :

- فى قبو السفارة الإسرائيلية .

اتسعت عيناها مرة أخرى ، وهى تهتف :

- رباه ! هل وقعنا فى قبضتهم ؟!

هزّ كتفيه ، مجيبًا فى بساطة ، لا تتناسب مع الموقف :

- يبدو هذا .

هتفت :

- وتركونا على قيد الحياة ؟

تراجع فى مقعده ، فى هدوء مدهش ، وهو يجيب :

- هذا أكبر خطأ ارتكبوه يا عزيزتى .

أجابه أحد رجال الأمن فى سخرية عصبية :

- يمكننا تصحيح الخطأ ، فى أية لحظة يا هذا .

تجاهله (أدهم) تمامًا ، وهو يقول لـ (منى) :

- من الواضح أنهم يفهمون العربية ، ولقد اتخذوا ثلاثة مواقع متباعدة ، كما تنصّ قواعد الأمن الأساسية ، وكما ترين ، فوهات أسلحتهم كلها مصوّبة إلينا فى تحفز .

ثم عاد يميل نحوها ، مضيفًا بهدوء أكثر :

- ولقد جردونا من كل أسلحتنا بالطبع .

تطلّعت إليه فى صمت ، وألف سؤال يموج فى أعماقها ..

ما الذى يخفيه بالضبط ؟!

هدوؤه الشديد هذا يعنى أن عقله يعمل بسرعة الصاروخ ؛ لإيجاد مخرج من هذا الموقف العصيب ..

ولكن أى مخرج ؟!

إنهم داخل زنزانة صغيرة ، لها قضبان فولاذية قوية ،

داخل قبو السفارة الإسرائيلية ، وثلاثة مدافع آلية مصوبة إليهما ..

أى أمر يمكن أن يخرجهم من كل هذا ؟!

أى أمر ؟!

« لقد قتلوا (عماد) .. »

انتفض جسدها فى عنف ، عندما نطق (أدهم) العبارة ، وحدقت فيه ، هاتفة فى هلع مذعور :

ـ قتلوه ؟!

بدا صوته قاسيًا كالفولاذ ، حازمًا كألف ألف سيف ، وهو يقول :

ـ وسيدفعون الثمن .

ابتسم أحد رجال الأمن الثلاثة ، وهو يقول فى سخرية :

ـ وكيف سندفع الثمن أيها المتحذلق ؟! نقدًا أم بوساطة بطاقات الائتمان ؟!

استدار إليه (أدهم) ، قائلاً فى صرامة مخيفة :

ـ ما رأيك ببطاقات الدم ؟!

احتقن وجه الرجل ، وحمل صوته قدرًا هائلاً من الغضب والمقت ، وهو يقول :

ـ الدم يمكن أن يراق فى أية لحظة أيها المصرى .

نهض (أدهم) من مقعده الخشبى ، وقال فى سخرية :

ـ يا للشجاعة ! من السهل بالطبع أن تتحدث بهذا الأسلوب الحقير ، عندما تمسك بيدك مدفعًا آليًا ، فى مواجهة شخص أعزل .

هتف الرجل :

ـ لن تنجح فى استفزازى ، بهذا الأسلوب الملتوى .

واصل (أدهم) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ أما لو تواجهنا رجلاً لرجل ، لحطمتك بقبضتى هكذا .

قالها ، وهوى بقبضته فجأة ، على منتصف المقعد الخشبى ، ليحطمه بمنتهى العنف ، على نحو أدهش (منى) نفسها ، ودفعها إلى أن تتراجع بخطوة خلفية حادة ، هاتفة :

ـ (أدهم) ؟!



قالها ، وهوى بقبضته فجأة ، على منتصف المقعد الخشبى ، ليحطمه بمنتهى العنف ..

لم يبد حتى أنه قد سمعها ، وهو يلتقط واحدة من أرجل المقعد المحطم ، متابعًا فى سخرية أكثر :

ـ وبقطعة خشب كهذه ، يمكننى أن أهزم مدفعك الآلى الإسرائيلى الحقير .

احتقن وجه الرجل أكثر وأكثر ، وتراجع مشيرًا إلى زميليه ، وهو يقول ، بكل الغضب والصرامة :

ـ يبدو أنك قد نسيت تعليمات أدون (دوريل) ، أيها المصرى المتحذلق .. لقد سمح لنا بإطلاق النار عليك ، عند أول بادرة شك .

وجذب إبرة مدفعه الآلى ، مضيفًا فى شراسة :

ـ وتصرفاتك تبعث فى نفسى كل الشك ، اللازم لتنفيذ هذا الأمر .. أليس كذلك يا رفاق ؟!

جذب الآخران إبرتى مدفعيهما بدورهما ، وأحدهما يقول فى صرامة :

ـ بالتأكيد .

تألقت عينا الرجل ، وهو يصوّب مدفعه إلى (أدهم) و(منى) ، قائلاً :

ـ حاول أن تستخدم سخريتك السخيفة هذه ، مع شياطين الجحيم .

وسرت رعدة قوية فى جسد (منى) ..

ففى موقف كهذا ، كان من الواضح أنهما قد خسرا المعركة ..

خسراها إلى الأبد .





٤ ـ العامل البشرى ..

اعتدل مستر (X) على مقعده ، وتأكد من أن الضوء من خلفه لا يسمح بكشف ملامحه ، قبل أن يضغط زر الاتصال المرئى ، استجابة لإشارة ملحة ، وهو يقول فى صرامة ، عبر جهاز تغيير الأصوات ، الذى يمنح صوته رنينًا آليًا خاصًا :

ـ هل نفذت مهمتك يا (ألبرتو) ؟!

أدهشه أن بدت على شاشته صورة (لورا كيلرمان) ، وهى تقول فى سخرية :

ـ معذرة يا مستر (X) ، ولكننى لست (ألبرتو) .

أخفى الظلام المحيط به انعقاد حاجبيه ، وتوتر ملامحه الشديد ، إلا أن جهاز تغيير الأصوات لم ينجح فى إخفاء عصبيته ، وهو يقول :

ـ ماذا تفعلين عندك يا (لورا) ؟! المفترض أن هذا منزل مساعدى (ألبرتو) !!

هزت كتفيها بلا مبالاة ، وهى تشعل سيجارتها ، قائلة :

- مساعدك (ألبرتو) لم يعد يحتاج إلى هذا المنزل الأنيق الفاخر ، فلديه الآن الجحيم كله ، يعبث فيه كيفما يشاء ، ولكننى أعتقد أن ما كنت تقصده بسؤالك هو : ماذا تفعلين فى هذه الحياة يا (لورا) ؟!

ثم مالت نحو شاشتها ، ونفثت فيها دخان سيجارتها ، مستطردة :

- أليس كذلك ؟!

صمت مستر (X) طويلاً ، وهو يتطلع إلى صورتها على الشاشة ، قبل أن يقول فى صرامة غاضبة :

- من أنت بالضبط ؟!

تراجعت بابتسامة ساخرة ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى فى عمق ، قائلة :

- عجبًا ! هل نسيتنى يا عزيزى الزعيم ؟! أنا (لورا) .. تابعتك المخلصة (لورا كليرمان) ، التى سئمت منها ، فأرسلتها لتموت هنا فى (روما) .

كرر فى صرامة أكثر :

- من أنت ؟!

أطلقت ضحكة عابثة قصيرة ، قبل أن تقول :

- من تظننى ؟!

أجابها فى حدة :

- لست (لورا كليرمان) بالتأكيد .

ابتسمت فى سخرية ، وهى ترفع ذراعيها جانبًا ، قائلة :

- ولماذا تفترض هذا يا زعيمى ؟! أليست ملامحى ..

قاطعها فى صرامة غاضبة :

- ملامحك قد تشبه (لورا) إلى حد ما ، ولكن تنكرك ليس متقنًا إلى الحد الكافى لخداعى .. حتى صوتك لا يشبه صوتها أبدًا .

أطلقت ضحكة طويلة مطوطة ، وعادت تنفث دخان سيجارتها ، قبل أن تقول فى عبث :

- كنت واثقة من أنك ستلاحظ هذا .

قال فى حدة :

- لقد قتلت (لورا) ، وانتحلت شخصيتها !

هزت رأسها نفيًا فى هدوء ، قائلة :

ـ كلا .. (لورا) الحقيقية ما زالت على قيد الحياة ، فقد أسندت إليها دورًا مهمًا ، فى لعبتى الجديدة .

شعرت كل ذرة من كيانه بالتوتر ، وهو يلوذ بالصمت بضع لحظات ، ثم يسأل فى صرامة :

ـ من أنت ؟!

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، قبل أن تلقيها بطول يدها ، قائلة :

ـ اعتصر عقلك يا زعيمى ، وحاول أن تعثر على الجواب .

أنهت قولها بضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تقطع الاتصال ، فاحتقن وجهه بشدة ، وتصاعد فى أعماقه غضب هادر ، فى نفس اللحظة ، التى استدارت فيها هى إلى مساعدها ، قائلة فى حزم ، لا يتناسب مع سخريتها السابقة :

ـ هل سجلت كل شىء ؟!

أجابها مساعدها ، فى هدوء بارد :

ـ كل شىء يا سيدتى .

تراجعت فى مقعدها ، قائلة :

ـ عظيم .. فليبدأ رجال القسم الفنى عملهم على الفور .. أريد معرفة كل التفاصيل ، بأسرع وقت ممكن .

ثم أشعلت سيجارة أخرى ، قبل أن تضيف فى صرامة :

ـ إننى أتحرق شوقًا لرؤية أثر المفاجأة ، على وجه مستر (X) العزيز ، عندما نلتقى .. وجهًا لوجه .

فى اللحظة ذاتها ، التى نطقت فيها عبارتها الأخيرة ، كان مستر (X) يحاول الاسترخاء فى مقعده ، واستعادة كل حرف تبادله مع تلك التى تنتحل شخصية (لورا كيلرمان) .. وبضغطة زر ، أعاد عرض كل ما دار بينه وبينها ، على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص به ..

كل حوار ..

كل جملة ..

كل كلمة ..

بل كل حرف ..

ورويدًا رويدًا ، راحت فكرة ما تتكوّن فى ذهنه ..

فكرة عجيبة ..

ومخيفة ..

ولكنها منطقية ..

منطقية تمامًا ..

وبكل توتر وغضب الدنيا ، انعقد حاجباه ، وذهنه يرتب الأحداث ، ويدرس كل التطورات السابقة والحالية ، و ...

« إنها هى .. »

نطقها فى صرامة ثائرة ، قبل أن يعتدل ، ويلتقط هاتفه المحمول ، المزوّد بخاصية عدم التتبّع ، والمتصل مباشرة بالأقمار الصناعية ؛ ليبدأ سلسلة اتصالات خاصة .. فبالنسبة إليه ، تم إعلان الحرب بالفعل ..

وعليه أن يضع خطة هجوم ساحق ، فى هذه الحرب ..

حرب البقاء ..

الأخيرة ..

* * *

« أريد تلك المصرية .. »

نطقت (راشيل) العبارة ، فى صرامة عصبية ثائرة ، جعلت (شيمون) يتراجع فى مقعده ، ويشبك كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ فيما بعد يا (راشيل) .. فيما بعد .

لوّحت بذراعها ، هاتفة فى حدة :

ـ أى بعد ؟! لقد ظفرنا بها بالفعل ، وبزميلها الذى يتمنى كل رجل مخابرات فى العالم الظفر به ، وكان ينبغى أن نتخلص منهما فورًا ، ولكنك أبقيت عليهما لسبب ما ، لا يمكننى استيعابه أبدًا .

بدا عليه الغضب ، وهو يقول :

ـ لكل شىء أسبابه يا (راشيل) .

قالت فى عصبية بالغة :

ـ ملف ذلك المصرى يؤكّد ، أن كل من قبلنا قد فشل فى القضاء عليه ، لأنه منحه فرصة للبقاء .. الوسيلة الوحيدة ، كما تؤكّد الأوراق ، هى قتله فور رؤيته ، وهذا ما لم تفعله يا أدون (دوريل) ..

بدا شديد الصرامة والبرود ، وهو يقول :

ـ إنك تتجاوزين حدودك يا (راشيل) .

لوّحت بسبابتها فى وجهه بحدة ، هاتفة :

ـ وأنت تتجاوز كل قواعد الأمن يا أدون (دوريل) ، وكل الـ ...

هبّ من مقعده فجأة ، وقبض على معصمها بأصابع قوية ، وهو يقول فى شراسة :

ـ كفى .

حدقت فى وجهه بدهشة ، فمال نحوها ، حتى شعرت بلفح أنفاسه ، وهو يضيف بكل الصرامة والوحشية :

ـ لو واصلت تجاوز حدودك ، سأنسف رأسك بنفسى ، دون لحظة تردُد واحدة .

التقت عيونهما فى مقت شديد ، قبل أن تقول هى فى بطء :

ـ لقد أوضحت وجهة نظرك .

ثم ابتعدت عنه ، مضيفة فى عصبية :

ـ ولكننى ما زلت أريد تلك المصرية .

وأشارت بيدها إلى إصابتى وجهها ، مستطردة :

ـ لا بد أن تدفع ثمن هذا .

قال فى صرامة :

ـ هذا يمكن محوه ، بعملية تجميل بسيطة .

قالت فى حدة :

ـ وماذا عن الجراح الداخلية ؟! أيمكن محوها أيضًا ، بعملية تجميل بسيطة ؟!

شعر بمزيج من الضجر والغضب فى أعماقه ، على نحو جعله يسألها فى حنق ساخط :

ـ كيف يمكن محوها إذن ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ بأن أقتل تلك المصرية .

وتألقت عيناها ببريق وحشى مخيف ، وهى تضيف :

ـ أمام عينى زميلها .

التقى حاجباه ، وتراجع فى صمت وبطء ؛ ليعاود الجلوس

على مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يفكر فى عمق ، دون أن يرفع عينيه عنها ..

لماذا يرفض تلبية مطلبها ؟!

بل ولماذا حرص على الإبقاء على (أدهم) وزميلته ؟!

لماذا لم يأمر رجاله بإطلاق النار على رأسيهما مباشرة ؟!

لمـاذا ؟!

لمـاذا ؟!

هل أخذته نشوة النصر ، وأراد أن يستمتع بانتصاره ، لأطول وقت ممكن ، قبل أن ينهى حياة (أدهم) ؟!

أم أنه هناك سبب آخر ؟!

سبب مدفون فى أعمق أعماق عقله الباطنى !!

هو نفسه يشعر بالحيرة لما فعله ..

وربما لأول مرة فى حياته كلها ..

وهو يكره هذا ..

يكرهه بشدة ..

ثم إن (راشيل) على حق ..

لا ينبغى أن يمنح (أدهم صبرى) أية فرصة للنجاة .

ينبغى أن يقتله على الفور ..

صحيح أنه يحتفظ به فى زنزانة خاصة ، فى قبو السفارة ، تحت حراسة ثلاثة من رجال الأمن المسلحين ، ولكنه لا يشعر بأن هذا يكفى ..

بل إنه حتمًا لا يكفى ، مع رجل مثل (أدهم) ..

لا يكفى أبدًا ..

وبحركة حادة مفاجئة ، هب من مقعده ، قائلا :

ـ فليكن ..

تألقت عينا (راشيل) مرة أخرى ، وهى تهتف :

ـ هل ستمنحنى إياها ؟!

أجابها فى حزم :

ـ أعدّى مسدسك يا (راشيل) ، فستظفرين بها الآن .

هتفت :

ـ هل ستتركنى أقتلها ؟!

سحب مسدسه ، قائلاً فى صرامة :

- سنقيم حفلاً يا عزيزتى (راشيل) .. سنهبط إلى القبو معًا .. أنت ستظفرين بالفتاة أولاً ، وبعدها سأطلق أنا النار على رأس (أدهم) ، بعد أن تلفظ هى أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه ..

واندفع خارج المكان ، مستطردًا فى شراسة :

- والواقع أنه لايمكننى الانتظار .

قالها ، واندفع كلاهما إلى قبو السفارة ، وقد انتابهما معًا انفعال جارف .. انفعال وحشى ..

رهيب ..

* * *

من المعروف أن الغضب انفعال جارف ، يطلق فى المرء طاقة هائلة ، تضاعف من قدراته وإمكانياته ..

المشكلة الوحيدة ، هى أنه يُفقد الإنسان سيطرته على مشاعره ، وعلى اتزانه العقلى والنفسى ، مما يجعل تصرفاته متخبّطة ، ويبعد عن قراراته الحكمة والاتزان ، وحسن التقدير .

ولكن ماذا لو أن كل طاقة الغضب هذه قد تفجّرت ، فى كيان ، رجل مثل (أدهم صبرى) ؟! رجل اعتاد ألا يخمد صوت عقله أبدًا ، أو يفقد السيطرة على اتزانه ومشاعره ، مهما كانت الأسباب ..

فى هذه الحالة ، من المؤكّد أن الأمر سيختلف ..

سيختلف كثيرًا ..

وهذا ما أدركته (منى) فى الثانية التى تلت تصويب رجال الأمن الثلاثة لمدافعهم الآلية ، نحوها ونحو (أدهم) ..

فجأة ، وبسرعة مذهلة ، تتجاوز حتى أقصى سرعة شهدته يعمل بها ، ألقى (أدهم) ثلاثًا من أرجل المقعد المحطّم ، نحو رجال الأمن الثلاثة ، بكل ما يملك من قوة ..

وبدقة مدهشة ، أصابت الأرجل الخشبية الثقيلة رءوس الرجال الثلاثة ، بمنتهى العنف ، حتى إن (منى) تكاد تقسم أنه ، من فرط السرعة والقوة ، لم يدرك رجال الأمن الإسرائيليون الثلاثة ما أصابهم ، قبل أن يسقطوا فاقدى الوعى ، دون أن تنطلق من مدفع أحدهم رصاصة واحدة ..

(منى) نفسها بدت ذاهلة ، وهى تحدق فى الرجال الثلاثة ، قبل أن تلتفت إلى (أدهم) ، مغمغمة فى انبهار :

- يا إلهى .. كيف ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، وهى تحدق فيه ، وقد شملتها رجفة عجيبة ، من فرط انفعالها ، فى حين بدا هو قويًا صارمًا ، وهو يقول :

- لأول مرة فى حياتى ، كنت أتمنى لو أن قطع الخشب هذه رصاصات قاتلة ، لأنسف بها رءوس هؤلاء الأوغاد .

ظلت صامتة بضع لحظات ، قبل أن تهتف فجأة بصوت مبحوح :

- ولكن .. ولكننا مازلنا داخل زنزانة ، فى قبو سفارتهم .

صمت لحظة ، ثم قال فى حزم :

- هذا يثبت أن الوسائل القديمة مازالت صالحة يا عزيزتى ، فى زمن التكنولوجيا وثورة الاتصالات .

سألته فى حيرة متوترة :

- أية وسائل قديمة ؟!

أشار إلى حذائه ، قائلاً :

- هل لاحظت أننى ، وعلى عكس المعتاد ، أرتدى حذاءً له رباط سميك ؟!

قالت فى اهتمام :

- هذا صحيح .. إنك لا تميل إلى الأحذية ذات الأربطة فى المعتاد .

انحنى يحلّ رباطى حذائه ، وهو يقول :

- ولكن هذا الرباط ليس تقليديًا يا عزيزتى .. إنه إحدى الوسائل ، التى ابتكرتها المخابرات البريطانية قديمًا ، إبان الحرب العالمية الثانية ..

واعتدل يناولها أحد الرباطين ، مستطردًا بابتسامة هادئة :

- إنه منشار قوى ، لو تم استخدامه على نحو جيد ، فسيكفى لقطع تلك القضبان الفولاذية ، خلال ثلاث دقائق فحسب ..

اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تحدق فى الرباط ، الذى انتبهت لأول مرة ، إلى أنه معدنى خشن :

- هل صنع البريطانيون هذا بالفعل ، فى الحرب العالمية الثانية(*) ؟

أجابها ، وهو يدير رباطه المعدنى ، حول قمة أحد القضبان الفولاذية ، ثم يمسك طرفيه ، ويجذبهما فى الاتجاهين ، فى إيقاع منتظم :

- نعم .. لقد فعلوها ، ولكن الكل نسيها ، فى غمرة انبهارهم بالتكنولوجيا الحديثة .

هتفت فى حماسة ، وهى تصنع مثله ، فى قاعدة القضيب نفسه :

- ويقولون : إن العامل البشرى لم يعد أساسيًا ، فى عمل أجهزة المخابرات ؟!

أجابها ، وهو يواصل عمله فى سرعة :

- إننى أخالفهم رأيهم هذا تمامًا يا عزيزتى .

كان ذلك المنشار المعدنى يؤدى عمله بكفاءة مدهشة ، ويلتهم قمة وقاعدة القضيب الفولاذى الطويل فى سرعة بهرت (منى) ، و ....

«يا إلهى .. ماذا يحدث هنا ؟!»

(*) حقيقة .

انطلق الهتاف فجأة ، من بين شفتى رجل أمن إسرائيلى آخر ، عند مدخل القبو ، عندما فوجئ برفاقه الثلاثة فاقدى الوعى ، ورأى ما يفعله (أدهم) و(منى) بالقضبان ، قبل أن يرفع فوهة مدفعه الآلى نحوهما ، صائحًا بكل قوته ، عبر جهاز الاتصال الداخلى :

- النجدة يا رفاق .. أريد إمدادات حالاً ..

ودوت الرصاصات فى قبو السفارة الإسرائيلية ..

بمنتهى العنف ..

* * *

كل ذرة فى كيانها أقسمت ، أنها لم تر (أدهم) يعمل على هذا النحو من قبل قط ..

هكذا شعرت (منى) ، وهى تحدق فى ذهول ، فيما فعله (أدهم) ، داخل قبو السفارة الإسرائيلية فى (روما) ..

لقد رأت رجل الأمن الإسرائيلى يرفع فوهة مدفعه الآلى نحوهما ، وتصورت أنها النهاية لاريب ، وأن موقفهما الحالى لا يمنحهما أدنى أمل فى الحياة ..

وعندما نقول : إنها قد تصورت هذا ، فنحن نشير هنا إلى نصف الثانية ، التى عمل خلالها عقلها ، قبل أن يتحرك (أدهم) ..

بل إنها لم تدر حتى متى تحرك !

أو كيف !

كل ما تذكره هو أنها سمعت صوتًا أشبه بفرقعة مكتومة ، ثم رأت (أدهم) يثب فى الهواء كالليث ، ويرتطم برجل الأمن الإسرائيلى ، فى نفس اللحظة التى ضغطت فيها سبابة هذا الأخير زناد مدفعه ، لتنطلق رصاصاته فى سقف القبو ..

وبعدها رأت قبضة (أدهم) تسحق فك الرجل ، الذى سقط أرضًا كالحجر ، فى نفس اللحظة التى التقط فيها (أدهم) مدفعه الآلى ، هاتفًا بها :

ـ أسرعى .. لابد أن نغادر بأقصى سرعة .

حدقت لثانية واحدة فى أحد قضبان الزنزانة ، الملقى أرضًا ، قبل أن تعبر الفراغ الذى خلفه سقوطه ، وتلتقط مدفعًا آليًا بدورها ، هاتفة :

ـ كيف فعلت هذا ؟!

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ إنها ليست معجزة .. لقد كنا نوشك على قطعه ، وكل ما فعلته هو أن دفعته بكتفى ، فأسقطت ما تبقى منه ..

هتفت بكل دهشة الدنيا :

ـ بكتفك ؟!

صاح بها ، وهو يندفع خارج القبو :

ـ ليس هذا وقت الانبهار والدهشة يا (منى) .. لقد أطلق ذلك الوغد الإنذار ، قبل أن أخرسه ، وهذا يعنى أنه لن تمضى لحظات ، حتى يكتظ المكان بكل رجل أمن إسرائيلى هنا .

اندفعت خلفه خارج القبو ، ولكن ما إن بلغا مخرجه ، حتى انهالت عليهما الرصاصات من كل صوب ، فتراجع (أدهم) ، مغمغمًا :

ـ من الواضح أنهم يتحركون ، أسرع مما نتصوَّر .

سألته فى انفعال :

ـ ماذا سنفعل الآن ؟! إنهم يحتجزوننا هنا ، وليس هناك من مخرج سوى هذا ..

التقى حاجباه ، وهو يدرس المكان ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فى هذه الحالة ، سنغادر من هذا المخرج .

هتفت :

ـ وماذا عن رصاصاتهم ؟!



صاح بها ، وهو يندفع خارج القبو :

ـ ليس هذا وقت الانبهار والدهشة يا (منى) ..

استدار إليها ، مجيبًا فى صرامة :

ـ ما دامت الرصاصات إسرائيلية ، فلتستقبلها أجساد إسرائيلية أيضًا .

أدركت ما يعنيه على الفور ..

وارتجف جسدها ..

ارتجف فى قوة ..

فى نفس اللحظة ، كانت (راشيل) تصرخ فى غضب هادر :

ـ مستحيل ! لن نسمح لهم بالانتصار علينا على أرضنا .. لا يمكن أن نسمح لهم بهذا يا أدون (دوريل) .. أليس كذلك ؟!

لم يكن غضب (شيمون) يقل عن غضبها ، خاصة وهو يسب نفسه ألف مرة ؛ لأنه لم يفعل ما أوصت به كل دراساتهم ، ولم يقتل (أدهم صبرى) فور رؤيته ..

لقد وقع فى الخطأ نفسه ، وترك له فرصة للنجاة ..

وقع فى أكبر خطأ ..

ولن يغفر لنفسه أبدًا ..

ولكن طبيعته الاحترافية جعلته يبذل جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على أعصابه ومشاعره ، وتركيز أفكاره على الموقف الذى يواجهه ..

لا ينبغى أن يفقده الغضب حسن تقديره أبدًا ..

أبدًا ..

«ماذا ستفعل ، يا أدون (دوريل) ؟!»

انتزعته (راشيل) بسؤالها العصبى من لجة أفكاره ، فالتفت إليها ، قائلاً فى برود أذهلها وأحنقها :

ـ السؤال هو : ما الذى سيفعله هو ؟!

صاحت مستنكرة :

ـ وهل سنترك له زمام المبادرة ؟!

أجابها فى برود أكثر :

ـ نعم ..

اتسعت عيناها ، وهى تحدق فيه بذهول ، قبل أن تلوّح بمسدسها ، قائلة فى غلظة :

ـ لا أعتقد أننى سأحتمل هذا .

احتقن وجهه لحظة ، قبل أن يدير فوهة مسدسه ، ويلصقها بصدغها ، قائلاً فى شراسة :

ـ أنا أيضًا لم أعد أحتمل هذا .. لم أحتمل الأغبياء والحمقى ،

الذين يفسدون خططى باستمرار .. لن أسمح لهم بأن يصنعوا من حماقتهم حجر عثرة ، أمام تقدُّم (إسرائيل) .

انتفض جسدها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ أدون (دوريل) ، إننى ..

قاطعها فى شراسة أكثر :

ـ حرف إضافى واحد ، وأضيف إلى جرحى وجهك ثقبين جديدين فى صدغيك ، و ...

قاطعه صياح رجاله المفاجئ ، ودوى رصاصاتهم المتواصل ، الذى شقّ سكون الليل فى المنطقة ، فأدار عينيه فى سرعة ، إلى حيث تتجه رصاصاتهم ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ..

فما فعله (أدهم) كان مدهشًا بحق !!

لقد انطلق خارج القبو ، وهو يحمل أمام جسده اثنين من رجال أمن السفارة ، ليصنع منهما درعًا بشرية ، تتلقى رصاصات زملائهما ..

ومن خلفه ، اندفعت (منى) ، وهى تطلق رصاصات مدفعها الآلى ، فى كل صوب ..

ولم يتردّد رجال أمن السفارة لحظة واحدة ، حتى مع استخدام (أدهم) لزميليهما كدرع بشرى ..

وانطلقت رصاصاتهم بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

واخترقت الرصاصات جسدى رجلى الأمن ، اللذين انتفضا فى عنف ، وتفجّرت الدماء من مواضع شتى فيهما ، دون أن يتوقّف (أدهم) و(منى) عن العدو لحظة واحدة .. كان من الواضح أنهما قد وضعا خطة محدودة ، إذ اتجها مباشرة نحو سيارة قوية رباعية الدفع ، تقف أمام مبنى السفارة مباشرة ..

وبكل توتر الدنيا ، هتفت (راشيل) :

ـ لا .. ليس هذه السيارة .

سألها (شيمون) فى برود عجيب ، ينفصل تمامًا عن الواقع المحيط بهما :

ـ أهى سيارتك ؟!

هتفت ، ملوّحة بمسدسها :

ـ بل هى سيارة طاقم الأمن ..

وارتجفت شفتاها بكل غضب وانفعال الدنيا ، وهى تضيف :

ـ المصفّحة .

انعقد حاجباه فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وتابع فى اهتمام حركة (منى) ، التى بلغت السيارة ، ووثبت داخلها ، وأدارت محركها بالفعل ، فى حين تراجع (أدهم) على نحو مدروس ، وهو يواصل تلقّى الرصاصات على جسدى رجلى الأمن ، حتى بلغ الجانب الآخر من السيارة ، والذى دفعت (منى) بابه ، فدفع هو جثتى الرجلين ، ووثب إلى السيارة ، هاتفًا :

ـ فلننطلق .

قبل حتى أن يكتمل هتافه ، كانت تضغط دوّاسة الوقود بكل قوتها ، وتنطلق بالسيارة المصفّحة ، عبر حديقة السفارة ، ونحو بوّابتها مباشرة ..

ومن كل مكان ، انهالت الرصاصات على السيارة ..

من مبنى السفارة ..

والحديقة ..

وعند البوّابة ..

ولكن جسم السيارة المصفّح القوى تلقّى الرصاصات ، وأزاحها بعيدًا ، و(منى) تثب بها ، لتحطّم البوّابة الكبيرة ، ثم تنطلق خارجًا بأقصى سرعة ..

وفى غضب هادر ، هتفت (راشيل) :

ـ لقد هربا .. لقد نجحا فى الفرار .

وبكل برود الدنيا ، ابتسم (شيمون) ، قائلاً :

ـ عظيم .

استدارت إليـه بدهشـة وانزعاج واستنكار ، ثم لم تلبث دهشتها أن استحالت إلى ذهول ، عندما اتسعت ابتسامته ..

ذهول بلا حدود .

* * *



٥ ـ الزمن الصعب ..

بمنتهى العنف ، اقتحم رجال مستر (X) شقة (ألـبرتو) ، فى قلب (روما) ، وانتشروا فيها فى سرعة ودقـة ، يشيران إلى أنهم محترفون فى هذا المجال ، وقال قائدهم فى صرامة :

ـ الزعيم لا يريد أحياء .. لا تترددوا فى إطلاق النار ، على أى كائن حى هنا .

كانت أصابعهم متحفزة تمامًا ، على أزنـدة مدافعهم بالفعل ، وهم يتحركون فى كل مكان ، بمنتهى الخفة والشراسة ، ثم لم يلبث أحدهم أن توقف ، قائلاً :

ـ لا أحد هنا .

أدار قائدهم عينيه فى المكان ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم أخرج هاتفًا خاصًا للغاية من جيبه ، يحوى زرين فحسب ، وضغط أحدهما ، قبل أن يقول عبر الهاتف :

ـ المكان خال تمامًا يا مستر (X) .

أتاه ذلك الصوت ، المعدَّل إليكترونيًا ، يقول برنينه الآلى :

ـ كنت أتوقَّع هذا .. إنها أذكى من أن تبقى ، فى مكان أعرف موقعه بالضبط .

سأله قائد الرجال :

ـ ماذا علينا أن نفعل إذن ؟!

أجابه الصوت الآلى فى حزم :

ـ ابقوا لحراسة المكان ، حتى يصل إليكم الفريق الفنى الخاص .. أريد منهم أن يفحصوا كل شبر فيه ، وأن يرفعوا البصمات عن جهاز الاتصال الخاص ، فى حجرة مكتب (ألبرتو) .

اتجه القائد نحو حجرة (ألبرتو) مباشرة ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا مستر (X) .

كان يهمّ بإغلاق الهاتف ، عندما انتبه فجأة إلى أمر ما ، جعله يهتف :

ـ مهلاً .

سأله مستر (X) فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابه القائد ، وهو يندفع داخل الحجرة :

ـ جهاز الاتصال الخاص ليس فى موضعه .. هناك جهاز آخر .

حمل الصوت الآلى قلق مستر (X) ، وهو يتساءل :

ـ أى جهاز آخر ؟!

أجابه القائد ، وهو يتجه نحو الجهاز فى حذر :

ـ لست أدرى .. يبدو وكأنه ..

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى شاشة الجهاز ، التى تحمل أرقامًا تنازلية ، ثم انتقل بصره إلى الأسلاك المتصلة به ، قبل أن يصرخ :

ـ قنبلة ! غادروا المكان بأقصى سرعة .

هتف مستر (X) فى دهشة :

ـ قنبلة ؟!

لم يسمع القائد هتافه ، وهو يعدو مع رجاله ، فى محاولة لمغادرة المكان ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار هائل ، تم توزيعه بوساطة خبير محنك ، بحيث بدأ عند مداخل ومخارج المنزل ، ثم انتشر داخلـه ، فى سرعة لا تكفى لفرار أى مخلوق من المكان ..

أى مخلوق ..

انفجار استغرق اثنتى عشرة ثانية فحسب ..

ثم اشتعلت النيران فى المكان كله ، دون أدنى دليل على نجاة فرد واحد من رجال مستر (X) ..

أما هـذا الأخير ، فقد شمله غضب هـادر ، وهو ينهى الاتصال من جانبه ، قائلاً فى مقت هائل :

ـ إنها هى .

وعلى الرغم من أنه قد اكتفى بهذا القول ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه أنبأه بأن هذه الحرب تهدد كيانه كله بالخطر ..

أو ربما تتجاوز هذا ..

بكثير ..

* * *

«لست أفهمك أبدًا يا أدون (دوريل) .. »

هتفت (راشيل) بالعبارة ، فى عصبية بالغة ، استقبلها (شيمون) ببروده الشهير ، الذى استعاده مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لو أن مثلك يمكنه فهمى ، لما كانت لى مكانتى الخاصة ، فى صفوف (الموساد) يا عزيزتى .

قالت محنقة :

ـ إنك لم تترك (أدهم صبرى) يفرّ من المكان ، بسيارة الأمن المصفحة فحسب ، ولكنك أيضًا كنت مبتهجًا بهذا .

قال بابتسامة باردة كالثلج :

ـ لو أنك تعلمين ما أعلمه ، لابتهجت بدورك يا (راشيل) ..

سألته فى عصبية :

ـ وما الذى تعلمه ؟!

بدت لها برودته قاسية ، وهو يقول :

ـ ليس هذا من شأنك .

احتقن وجهها ، وهى تكرر مستنكرة :

ـ ليس من شأنى ؟!

تراجع فى مقعده ، قائلاً :

- نعم .. ليس من شأنك .

أتاه صوت غاضب ، يقول فى حدة :

- وليس من شأنى أيضًا يا (شيمون) ؟!

استدار (شيمون) فى بطء إلى مصدر الصوت ، وهو يقول :

- نعم .. ليس من شأنك أيضًا يا (جراهام) ، فكلاكما أحمق ، إلى الحد الذى يمكن أن يُفسد كل عملنا هنا .

صاح فيه (جراهام) ، وهو يندفع إلى الداخل فى غضب :

- اسمع يا (شيمون) .. لقد أطلقت علىّ النار ، و ...

قاطعه (شيمون) فى صرامة :

- لا تضيع الوقت يا (جراهام) .. الأفضل أن تحزم أنت و(راشيل) حقائبكما ، حتى يمكنكما اللحاق بالطائرة فى الوقت المناسب .

انتفضت (راشيل) ، هاتفة :

- أية طائرة ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة شامتة ، وهو يقول :

- الواقع أننى قد أبلغت الإدارة فى (تل أبيب) ، عن الفوضى التى تحدث هنا ، وعن معوقات العمل ، والتصرفات الانفعالية الحمقاء ، التى تفسد كل شىء ، فأصدر الرؤساء قرارًا بعودتكما ، أنت و(جراهام) ، إلى (تل أبيب) ، على متن أول طائرة ، وتلك سيحين موعدها بعد ساعتين فحسب ، ولقد حجزت لكما تذكرتين فى الدرجة الـ ... سياحية .

احتقن وجه (جراهام) ، وهو يهتف :

- أيها الـ ...

قاطعه (شيمون) ، فى صرامة متشفية ، قائلاً :

- الإدارة فوضتنى أيضًا فى اعتقالكما ، ومحاكمتكما ، بل وتنفيذ الحكم فيكما أيضًا ، لو رفضتما تنفيذ الأوامر والانصياع لها ، باعتبار أننا فى مرحلة حرجة بالفعل ، من مستقبل (إسرائيل) ، وأى خروج على الأوامر يمكن اعتباره خيانة عظمى .

تبادل (جراهام) و(راشيل) نظرة غضب ، قبل أن تغمغم الأخيرة فى مقت :

- ولكنك وعدتنى .

وبدلاً من أن يجيب سؤالها ، هتف (شيمون) فجأة :

ـ (موشى) .

لم يكد هتافه يكتمل ، حتى اقتحم المكان الملحق العسكرى للسفارة ، بصحبة أربعة من رجال الأمن ، الذين بدا عليهم تحفز واضح ، فأشار (شيمون) إلى (موشى) ، قائلاً فى صرامة آمرة :

ـ يبدو أن السيِّد (جراهام) ، والسيِّدة (راشيل) ، يحتاجان إلى من يساعدهما على حزم حقائبهما ، ومن يوصلهما إلى المطار .. تحفظ على أسلحتهما ، حتى لا تكشفها البوابات الإليكترونية هناك ، وساعدهما على استكمال ما ينقصهما .

ثم شدَّ قامته ، مضيفًا بصرامة أكثر :

ـ المهم ألا أراهما بعد الآن .

بدا (موشى) متشفيًا ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا أدون (دوريل) .

احتقن وجه (جراهام) أكثر ، فغمغم فى مقت :

ـ سنلتقى مرة أخرى يا (شيمون) .

أشاح (شيمون) بوجهه ، متجاهلاً إياه تمامًا ، فى حين قالت (راشيل) فى حدة :

ـ لن أنسى هذا ما حييت .

أجابها (شيمون) ، دون أن يلتفت إليها :

ـ عظيم .

أخفى (موشى) ابتسامته الساخرة ، وهو يقول ، فى احترام زائف :

ـ سيِّدة (راشيل) .. سيِّد (جراهام) .. أعتقد أنه ينبغى أن نتحرك فورًا .

كان كلاهما يشعران بغضب لا محدود ، إلا أنهما لم يملكا سوى الانصياع للأمر ، فغادرا الحجرة فى استسلام ساخط ، يتبعهما رجال الأمن المسلحون ، فى حين بقى الملحق العسكرى داخل الحجرة ، ولاذ بالصمت التام ، حتى سأله (شيمون) ، دون أن يواجهه :

ـ هل أعددت كل شىء ؟!

أجابه (موشى) فى احترام :

ـ اطمئن يا أدون (دوريل) .. سيارتهما لن تصل أبدًا

إلى المطار ، ولن يصبح باستطاعتهما تقديم أية شكوى ضدك فى (تل أبيب) ..

صمت (شيمون) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى ازدراء :

ـ إنهما يستحقان هذا .. لقد أفسدا بحماقتهما كل شىء .

غمغم (موشى) :

ـ بالتأكيد يا أدون (دوريل) .. بالتأكيد .

عاد (شيمون) إلى صمته ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول :

ـ يا لسذاجتهما !! لقد صدقا ما أخبرتهما به ، وتصوّرا أن الإدارة هى التى طلبت عودتهما إلى (تل أبيب) .

ابتسم (موشى) ، قائلاً :

ـ وصدقا أنه هناك طائرة ستقلهما إلى هناك بالفعل .

مطّ (شيمون) شفتيه ، قائلاً :

ـ ألم أقل لك : إنهما يستحقان ما سيصيبهما ؟!

ثم استدار إليه فجأة ، متسائلاً :

ـ دعنا منهما الآن ، وأخبرنى .. هل تعاون الأمريكيون معنا ، بشأن عملية المتابعة بالأقمار الصناعية ؟!

أجابه (موشى) فى سرعة :

ـ بالتأكيد يا أدون (دوريل) .. لقد تتبعوا سيارة الأمن الخاصة بنا ، عن طريق جهاز الرصد الخاص ، الذى زودناها به مؤخرًا ، ورصدوا (أدهم صبرى) وزميلته ، وهما يغادرانها ، على مسافة أربعة شوارع من هنا ، ثم ينتقلان إلى سيارة إيطالية ، كانت فى انتظارهما ، على مقربة من هنا .

غمغم (شيمون) فى اهتمام :

ـ إنه أحد رجال مكتبهم هنا حتمًا .

تابع (موشى) ، دون أن يتوقّف عن التعليق :

ـ تلك السيارة الإيطالية نقلتهما إلى شارع (دافنشى) ، على أطراف (روما) ، ولقد استقرا هناك ، مما يوحى بأن هذا هو منزلهما الآمن هنا .

تألّقت عينا (شيمون) ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .. عظيم ..

التقط الملحق العسكرى نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حماسة :

ـ يمكننا أن ننقض عليهما الآن ، فى أية لحظة .

مطَّ (شيمون) شفتيه ، قائلاً :

ـ يا للخسارة ! كنت أظنك أكثر ذكاءً من الآخرين ..

ارتبك الملحق العسكرى ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل .. هل أخطأت يا أدون (دوريل) ؟!

قال (شيمون) فى هدوء :

ـ كلاً .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ ولكنك تفكِّر بنفس الأسلوب التقليدى النمطى ، الذى يفكِّر به الجميع .

تضاعف ارتباك الملحق العسكرى ، وهو يقول :

ـ تصوَّرت أن هدفنا الرئيسى هو القضاء على (أدهم صبرى) .

هزَّ (شيمون) رأسه نفيًا ، وقال فى بطء حازم :

ـ بل هدفنا الرئيسى الآن هو استعادة صور وثائقنا السرية يا رجل .

ثم تألقت عيناه ،وحملت شفتاه ابتسامة غامضة ،وهو يضيف :

ـ ومن أجل هذا الهدف ، سأفعل شيئًا لم يخطر ببال أى رجل (موساد) قط .

وازداد تألُّق عينيه ، مع استطرادته :

ـ سأضمّ (أدهم صبرى) إلى صفوفنا .

وانتفض جسد الملحق العسكرى ، من فرط الدهشة والذعر ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

بل وكادتا تثبان من محجريهما ..

فما قاله (شيمون) لم يكن فقط غريبًا ومستنكرًا ..

بل كان أقرب إلى الجنون ..

الجنون المطبق ..

* * *

على الرغم من وجودهما داخل ذلك المنزل الآمن ، فى شارع (دافنشى) ، على أطراف (روما) ، لأكثر من ساعة كاملة ، لم تتبادل (منى) كلمة واحدة مع (أدهم) ، الذى جلس صامتًا أمام النافذة ، كعادته كلما استغرق فى تفكير عميق ، أو سعى للاسترخاء التام ، قبل الإقدام على خطوة كبيرة ..

وعلى الرغم من أنه كان يوليها ظهره ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقها جعلها تدرك أنه حزين ..

حزين إلى حد كبير ..

ولقد ترددت طويلاً ، قبل أن تقترب منه على أطراف أصابعها ، وتدور حول مقعده ، لتهمس :

ـ هل أعدّ لك قدحًا من الشاى ؟!

رفع إليها عينيه فى بطء ، فانفطر قلبها ، قبل أن يهوى بين قدميها فى ارتياع ولوعة ..

نعم .. إنه حزين ..

بل ولم تره قط بهذا القدر من الحزن ..

حزن قوى عميق ، غاص فى عينيه ، وسبح فى وجدانه ، وطفا على كل خلجة من خلجاته ..

وبكل لوعتها ، هتفت :

ـ ماذا بك ؟!

حاول أن يبتسم ، إلا أن ابتسامته خانته هذه المرة ، وهو يقول :

ـ نعم .. هذا هو السؤال .. ماذا بى ؟!

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا فى مرارة :

ـ ما الذى فعله بى هؤلاء الأوغاد ، حتى دفعونى إلى نبذ كل مبادئى ، وإراقة دمائهم على هذا النحو .

ربتت على شعره فى حنان ، قائلة :

ـ كانوا يستحقون هذا .. لقد قتلوا (أشرف) و(عماد) بلا رحمة .

قال فى أسى :

ـ هذا دأبهم .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وليس دأبنا .

غمغمت فى حنان ، محاولة تهدئة مشاعره :

ـ هكذا الحروب دومًا ، تدفعك إلى فعل ما تكرهه ، حتى تظفر بما تستحق .

زفر فى مرارة ، متمتمًا :

ـ نعم .. هكذا الحروب .

قالها ، وشرد ببصره بضع لحظات ، قبل أن يضيف فى أسف :

ـ منذ نعومة أظفارى ، علمنى والدى (رحمه الله) ، أنه حتى للحروب قواعد ، إما أن يلتزم بها المرء ، ليكون مقاتلاً شريفًا ، أو يتجاهلها ، ليصبح مجرد همجى ، يريق الدماء ، دون هدف ، أم مبدأ أو عقيدة .

تمتمت ، وهى تمسح شعره بيدها :

ـ كل ما فعلناه كان حتميًا ، والضرورات تبيح المحظورات .

غمغم :

ـ أعلم هذا .

وصمت لحظة ، ثم تابع فى أسى :

ـ المشكلة أننى كنت أفعل هذا عن اقتناع تام .. بل وكنت أرغب فى تكبيدهم المزيد أيضًا .

زفر مرة أخرى ، قبل أن يستطرد :

ـ هؤلاء الأوغاد استباحوا دماءنا ، ويسعون للقضاء على كل ما هو عربى ، متجاهلين كل القواعد السياسية ، والقانونية ، والشرعية ، وحتى الآدمية ، ولقد رأيت بنفسك كيف لم يبالوا بإشعال حرب محدودة داخل سفارتهم ، وكأنما ملكوا العالم كله ، أو تسيّدوه ، ولم يعد يعنيهم كيف تسير الأمور ،

ما داموا يحققون أهدافهم الحقيرة فى النهاية ، لذا فقد شعرت نحوهم هذه المرة بمقت وغضب بلا حدود ، وتمنيت لو أزلتهم جميعًا من الوجود .

تراجعت ، متمتمة :

ـ يا إلهى ! إنها أول مرة أسمعك تتحدث فيها ، بكل هذا المقت .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لقد تجاوزوا الحدود هذه المرة يا (منى) .. كل الحدود

وضاقت عيناه فى صرامة غاضبة ، وهو يضيف :

ـ ولابد أن يدفعوا الثمن .

لم تجد ما تقوله ، لتخفف انفعاله ، أو تزيل حزنه ، فمسحت بيدها شعره مرة أخرى ، فى حنان جارف ، دون أن تنبس ببنت شفة ..

ولدقائق سبع ، شملهم صمت مهيب ، وهو شارد ببصره عبر النافذة ، قبل أن يقول فجأة :

ـ هل شاهدت سطح مبنى (روتشيلد) بنفسك ؟!

أومأت برأسها ، مجيبة :



لم تجد ما تقوله ، لتخفف انفعاله ، أو تزيل حزنه ، فمسحت بيدها شعره مرة أخرى ، فى حنان جارف ..

ـ نعم .. ذهبت مع (أشرف) رحمه الله ، وفحصناه جيدًا ، ولكننا لم نجد شيئًا .

بدا عليه الاهتمام الشديد ، وهو يقول :

ـ أين أخفى (عماد) البطاقة الإليكترونية إذن .

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ إننى ألقى على نفسى هذا السؤال ألف مرة ، فى كل يوم .

لاذ بالصمت لدقيقة أخرى ، ثم قال ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ السبيل الوحيد إلى معرفة الجواب هى أن يضع المرء نفسه فى مكان (عماد) .

لم تحاول مقاطعته ، عندما غرق مرة أخرى ، فى بحر من الصمت والتفكير ، وإنما اكتفت بالتطلّع إليه ، وفى رأسها يدور ألف سؤال وسؤال ، حتى قطع هو كل تساؤلاتها ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ أريد معرفة كافة تفاصيل عملية (الأوراق السرية) منذ بدايتها .

ثم نهض من مقعده ، وتابع ، وهو يتحرك فى الحجرة بنشاط جم :

ـ وأنا أعنى هنا كافة التفاصيل الدقيقة .. ماذا كان (عماد) (رحمه الله) يحمل معه ؟! وكيف بلغ السطح ؟! ومتى ؟! وكم استغرق فوقه ، قبل أن يقتحمه رجال حراسة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى فى (روما) .. كل شىء يا (منى) .. كل شىء .

أجابته فى حماسة . وهى تلتقط حقيبتها :

ـ عندى هنا تقرير متكامل ، يحوى كل التفاصيل .

قالتها ، وأخرجت التقرير من حقيبتها ، وناولته إياه ، فالتقطه بسرعة ، وراح يطالعه فى اهتمام ، فسألته فى حنان :

ـ ماذا عن قدح الشاى ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ لابأس .. لابأس .

لم يشعر حتى بانصرافها ، وهو منهمك بكيانه كله ، فى مراجعة كافة تفاصيل عملية (الأوراق السرية) ، كما وردت فى تقرير المخابرات المصرى ..

راجع كل ما كان يحمله (عماد) ..

وخريطة المبنى ..

وخرائط المنطقة كلها ..

وحدد موقع هبوط (عماد) ، على سطح بناية (روتشلد) ..

وموقع فراره منها ..

والفترة التى قضاها هناك ..

راجع كل شىء ..

كل شىء بلا استثناء ..

وفى هدوء ، ودون أن تحاول مقاطعته ، أو تشتيت تفكيره ، وضعت (منى) قدح الشاى إلى جواره ، واتخذت مقعدًا قريبًا ، وراحت تراقبه فى اهتمام بالغ ..

رأته يراجع الملف كله مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ثم شاهدته يسبل جفنيه ، ويسند رأسه إلى ظهر مقعده ، ثم يسترخى تمامًا فى مجلسه ، ويطلق لتفكيره العنان ..

كان يتقمص تمامًا شخصية (عماد) ..

أو يحاول هذا على الأقل ..

وكانت لديه موهبة مدهشة فى هذا الشأن ..

موهبة جعلته يرى نفسه فوق البناية الوحيدة ، التى تعلو بناية (روتشيلد) ، وهو يطلق ذلك السهم القصير ، الذى حمل السلك القوى ، الذى انزلق فوقه ، حتى سطح المبنى ..

وتتابعت الأحداث فى ذهنه ، وكأنه يعرض فيلمًا خياليًا ، لكل ما فعله (عماد) هناك ، حتى انكشف أمره ..

وبدأت المطاردة ..

وعند هذه المرحلة ، شحذ (أدهم) كل تفكيره وانتباهه ..

(عماد) صعد إلى السطح ، ومعه الأوراق السرية ..

ولأنه خشى أن يستعيدها الإسرائيليون ، أخرج آلة التصوير الرقمية ، والتقط صور الوثائق الإسرائيلية ..

ثم انتزع بطاقة الصور الرقمية ..

و ....

وهنا توقف (أدهم) ، وراح يشحذ تفكيره أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ماذا يمكن أن يفعل هو ، فى موقف مماثل ؟!

أى مكان يمكن أن يخفى فيه البطاقة ، دون أن يعثر عليها الإسرائيليون ؟!

أين يمكن أن يضعها ، بحيث يمكنه استعادتها ، لو نجا من مثل هذا الموقف ؟!

أين ؟!

أين ؟!

أين ؟!

استعاد ذهنه فى لحظة موقع (عماد) ..

وأسلحته ..

وزاوية هروبه ..

وخريطة السطح ..

والمنطقة ..

و ....

« وجدتها .. »

هتف بالكلمة فجأة ، وهو يعتدل فى مجلسه بحركة حادة ، جعلت جسد (منى) ينتفض ، وهى تهتف بدورها :

ـ وجدتها ؟!

هب من مجلسه ، وأمسك كتفيها ، قائلاً في حزم ، ووجهه يحمل ابتسامة ظافرة كبيرة :

- نعم .. وجدتها يا عزيزتي (منى) .. عرفت أين أخفى (عماد) (رحمه الله) تلك البطاقة الرقيمة ..

هتفت في انبهار :

- حقًا ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

- كانت لمحة عبقرية منه بحق ، على الرغم من بساطتها ..

هتفت بكل انفعالها ولهفتها :

- أين أخفاها ؟! أين أخفى تلك البطاقة الصغيرة ؟!

ولم يكد (أدهم) يخبرها ، حتى اتسعت عيناها عن آخرها ، وخفق قلبها في انبهار كامل ..

فما كشفه (أدهم) كان مدهشًا ..

مدهشًا بحق ..

وبكل المقاييس ..

* * *

٦ - السر ..

« من المستحيل أن تكون (سونيا جراهام) ! » ..

نطق المندوب الفرنسي ، لمنظمة (X) الإجرامية العبارة ، بمنتهى الحزم والحسم ، عبر قناة الاتصال الخاصة المؤمّنة ، وبدا واثقًا للغاية ، وهو يضيف :

- لقد راجعت التحقيقات ، التي تبعت مصرعها ، خطوة فخطوة ، وبمنتهى الدقة ، وتيقنت بنفسي من أن قنبلتنا قد نسفتها نسفًا[*] .

قال مستر (X) في توتر :

- مع امرأة مثل (سونيا) ، لا يمكنك أن تثق بأي شيء .

هزّ المندوب الفرنسي رأسه ، قائلاً :

- مستحيل يا مستر (X) !! هناك أمور حاسمة تمامًا ، في مثل هذه الأمور .

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم (١٣٤) .

سأله فى (اهتمام) :

ـ مثل ماذا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ نتائج فحص الأشلاء ، التى تخلفت عن الانفجار .. لقد كانت تتوافق كلها مع البصمة الجينية لـ (سونيا جراهام) ، وهذا أمر لا يمكن تزييفه أو تزويره .

اعتدل مستر (X) ، وهو يسأله فى حزم :

ـ وهل تيقنت من هذه النتائج بنفسك ؟! أعنى ألا يمكن أن نحصل على نتائج غير حقيقية ، عن طريق رشوة الفنيين مثلاً ؟!

ابتسم المندوب الفرنسى ، قائلاً :

ـ هذا أول ما خطر ببالى ، لذا فقد حاصرت الفنيين ورجال المعامل طوال الوقت ، ونشرت رجالى فى كل مكان ، واعتمدت على أكثر من شخص ، وأكثر من جهة ، لتأكيد كل معلومة ترد ، بحيث لم تعد لدىّ ذرة واحدة من الشك ، فى صحة النتائج .

تنهّد مستر (X) ، متمتمًا :

ـ مازلت أتساءل .

هزّ المندوب الفرنسى رأسه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ يمكنك أن تتأكد بنفسك يا مستر (X) ، فالشرطة الفرنسية مازالت تحتفظ ببعض الأشلاء ، المتخلّفة عن حادث الانفجار ، كما ينصّ قانونها ، والبصمة الجينية لـ (سونيا) ، محفوظة فى (الموساد) ، وهناك عينة منها ، تم إرسالها إلى هنا .

سأله فى سرعة :

ـ ألا يمكن العبث بتلك العينة ؟!

تراجع الفرنسى ، متسائلاً :

ـ وكيف هذا ؟!

أجابه مستر (X) فى صرامة :

ـ هناك عدة وسائل لهذا ، فرحلتها من (إسرائيل) إلى (فرنسا) ، تحمل عشرات الاحتمالات ، لاستبدالها ، أو تغيير بياناتها .

ابتسم الفرنسى ، قائلاً فى ثقة :

ـ مستحيل يا مستر (X) ، فالعينة يتم إرسالها تحت حراسة قوية ، وبوجود مندوب إسرائيلى ، وآخر فرنسى .

زمجر مستر (X) ، قائلاً :

ـ كل هذا يمكن تجاوزه .

قال المندوب الفرنسى ، مشيرًا بيده :

ـ الإسرائيليون والفرنسيون أيضًا خشوا هذا ، لذا فقد تم إرسال بيانات العينة ، عبر ثلاث وسائل مختلفة ، منها البريد السريع ، والبث المباشر ، بحيث يمكن مطابقتها على العينة التى ستصل .

صمت مستر (X) طويلاً هذه المرة ، وهو يدير الأمر فى رأسه كثيرًا ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فليكن .. أريد أن أراجع كل هذا مرة أخرى .

تساءل الفرنسى فى حيرة :

ـ ولماذا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لأتأكد بنفسى ، كما نصحتنى .

أومأ الفرنسى برأسه ، وقال فى حماسة :

ـ هذا أفضل بالتأكيد يا مستر (X) .. سأعمل على تنفيذ أوامرك فورًا ، ودون إبطاء .

غمغم مستر (X) فى صرامة :

ـ فليكن .

نطقها ، وهو يضغط زر إنهاء الاتصال ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ويغرق فى تفكير عميق ..

مستحيل ألا تكون هى !!

مستحيل !

مستحيل !

ذهنه لاينتخب سواها ، للقيام بما حدث حتى الآن ..

وحدها تمتلك الجرأة والقدرة على تحديه ..

وحدها ..

ولكن كل شىء يؤكد أنها قد لقيت مصرعها ، فى انفجار سيارتها فى (باريس) ..

كل شىء ..

وهناك دلائل ونتائج لا تقبل الشك ..

وكلها تؤكد أنها قد ماتت ..

انتهت ..

فنيت إلى الأبد ..

وهذا لا يتفق مع تحليله للأحداث ..

لا يتفق معه أبدًا ..

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يعيد ترتيب الأحداث مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وتضاعفت حيرته ألف مرة ..

إنها هى ..

حتمًا هى ..

ثم فجأة ، وثب خاطر مخيف إلى ذهنه ..

ماذا لو أن عقله وحده هو الذى صنع كل هذا ؟!

ماذا لو أنه أسقط الموقف كله على (سونيا جراهام) ، على الرغم من تأكيدات مصرعها القوية ، لمجرَّد أنه لم يجد أخرى تناسب ما حدث ؟!

إنه احتمال وارد ..

ويا له من احتمال !

فعلى الرغم من أنه يبدو أكثر منطقية ، من عودة (سونيا جراهام) إلى الحياة مرة أخرى ، إلا أنه يزيد الموقف كله صعوبة وتعقيدًا ..

فلو أنها ليست (سونيا) ، فمن تكون ؟!

من ؟!

من ؟!

بل ، والأكثر خطورة أنها لو لم تكن (سونيا) ، فهى حتمًا امرأة أخرى ، لا تقلّ عنها خطورة ..

ولكنها تمتلك مزية مخيفة ..

أن أحدًا لن يمكنه أن يتوقع خطوتها التالية ..

لا أحد على الإطلاق ..

وبكل توتر الدنيا ، اعتدل فى مقعده ، وسؤال رهيب يسيطر على كيانه كله بلا هوادة ..

لو أنها ليست (سونيا) ، فكيف ومتى ستكون ضربتها القادمة ؟!

كيف ؟!

ومتى ؟!

* * *

راجع مدير المخابرات المصرية شخصيًا ، تلك التقارير العاجلة ، الواردة من الولايات المتحدة الأمريكية ، قبل أن يرفع رأسه إلى مساعده الأول ، قائلاً :

- تمامًا كما كنا نتوقَّع .. الأمريكيون يتعاونون مع الإسرائيليين بلا حدود .

وافقه مساعده بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

- لقد استخدم الأمريكيون أقمار التجسُّس الصناعية ؛ لمتابعة سيادة العميد (أدهم) ، والمقدَّم (منى) ، حتى ذلك المنزل الآمن ، فى أطراف (روما) .

تراجع المدير فى مقعده ، وبدا شديد الاهتمام ، وهو يقول :

- إذن فالإسرائيليون يعلمون الآن موقع المنزل الآمن .

أومأ المساعد برأسه مرة أخرى ، قائلاً :

- يعلمون منذ ما يزيد على الساعة ، كما أبلغنا عميلنا فى (واشنطن) يا سيِّدى .

غرق المدير فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً ، وكأنه يحدث نفسه :

- وعلى الرغم من هذا ، فهم لم يحاولوا مهاجمة المكان قط .. عجبًا !! هذا لا يبدو لى منطقيًا !

تردَّد المساعد بضع لحظات ، قبل أن يقول ، فى شىء من الحذر :

- يبدو أنهم ينتظرون التوقيت المناسب .

غمغم المدير فى اقتضاب :

- ربما .

ثم نهض من مقعده ، وملامحه تشفَّ عن التفكير العميق ، واتجه نحو نافذة حجرته ، كعادته كلما أراد أن يستجمع أفكاره ، أو يرتب معلوماته ، وظلَّ صامتًا هناك لدقيقة كاملة أو يزيد ، قبل أن يقول :

- أو أن لهم هدفًا آخر .

سأله مساعده فى اهتمام :

- أى هدف يا سيِّدى ؟!

استغرق المدير فى التفكير ، لبضع لحظات أخرى ، ثم قال ، محاولاً ترتيب أفكاره :

- فى كل الأحوال ، لابد من تحذير (ن - ١) ، بأية

وسيلة كانت ؛ حتى يدرك ما يدبرونه له ، ولكن معرفتهم لموقعه تعنى أنهم قد استخدموا كل تكنولوجيا أمريكية متاحة لديهم ، لمحاصرته تمامًا ، والسيطرة على كل اتصالاته .. إنهم حتمًا يراقبون هاتف المنزل الآمن ، ويضعون أجهزة لالتقاط الموجات الرقمية لأى هاتف محمول بالمنطقة ، ولن يمكننا إرسال عميل خاص ، دون أن يكشفوا أمره .

واستدار إلى مساعده ، مستطردًا :

ـ كيف يمكننا الاتصال به وتحذيره إذن ؟!

ران الصمت فى المكان لفترة طويلة نسبيًا ، وكلاهما يعتصر ذهنه ، للبحث عن وسيلة ما ، و ..

« وماذا عن الوسائل القديمة ؟! » ..

نطقها المساعد فى اهتمام ، جعل المدير يسأله فى سرعة :

ـ أية وسائل ؟!

أجاب المساعد فى حماسة :

ـ قديمًا ، وإبان حرب السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ ، كان لنا عميل فى (سيناء) ، نجد صعوبة فى الاتصال به ،

فابتكرنا وسيلة ضوئية ممتازة ، لا تعتمد على استخدام نبضات وإشارات (موريس) المعتادة(*) ، وإنما تستخدم الألوان وتتابعها ، مثلما يستخدم رجال البحر الأعلام المختلفة ، لإعلان حالة سفنهم ، ولقد نجح أسلوبنا هذا تمامًا ، وأصبح باستطاعة عميلنا فى (سيناء) ، أن يبلغنا كل التفاصيل ، بوساطة قطع من الورق الملوَّن الشفاف ، بمنتهى الدقة ، ودون أن يكشف الإسرائيليون أمره أبدًا ..(**)

التقى حاجبا المدير ، وهو يقول :

ـ الإسرائيليون متابعون جيدون للتاريخ .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ ولكننا لن نضيع هذه الفرصة .. هيا .. اعمل على تنفيذها فورًا .

أسرع المساعد ؛ لاتخاذ التدابير اللازمة ، لتنفيذ العملية فورًا ، فى حين بقى المدير فى مكتبه ، أمام نافذته ، وعقله مازال يستعيد السؤال الأول ..

(*) إشارات موريس : نبضات صوتية أو ضوئية خاصة ، تعتمد على نظام ثنائى ، يتكون من النقاط والشرط ، تستخدم للاتصال على مسافات بعيدة ، وهى أساس فكرة التلغراف ، ومازالت تستخدم بحريًا ، فى حالة عطل أجهزة اللاسلكى .

(**) عملية حقيقية .

مادام الإسرائيليون قد حددوا بالفعل موقع (منى) و(أدهم) فلماذا لم يهاجموا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

وفى أعمق أعماقه ، راح الجواب يتكوّن فى بطء ، ويتضح أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

والواقع أنه كان جوابًا خطيرًا ..

خطيرًا للغاية ..

* * *

« (أدهم صبرى) وزميلته غادرا ذلك المنزل الآمن .. »

نطق الملحق العسكرى الإسرائيلى العبارة فى حماسة ، فتراجع (شيمون) فى مقعده ، متسائلاً :

- أما زال الأمريكيون يتبعونهما ، بوساطة أقمارهم الصناعية ؟!

أومأ الملحق العسكرى برأسه ، مجيبًا :

- بلى يا أدون (دوريل) .. لقد نفذنا أوامرك بالضبط ، ولم نرسل أحدًا لمتابعتهما ، حتى لا يكشفا أمره ، ولكننا نتابع تحركاتهما خطوة فخطوة ، بوساطة الأقمار الصناعية الأمريكية .

هزّ (شيمون) رأسه ، مغمغمًا فى تفكير عميق :

- عظيم .. عظيم .

تردّد الملحق العسكرى بضع لحظات ، قبل أن يسأله فى شغف :

- إلى أين تعتقد أنهما سيذهبان يا سيّدى ؟!

غرق (شيمون) فى التفكير بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن أجاب ، فى بطء حذر :

- لو أن (أدهم صبرى) مازال يحتفظ بمواهبه المعروفة ، فمن الأرجح أنهما فى طريقهما الآن إلى الهدف ..

وأدار عينيه إلى الملحق العسكرى ، مضيفًا :

- إلى حيث بطاقة التسجيل الرقمية .

قال الملحق العسكرى فى انبهار :

- هل تعتقد أنهما قد توصلا إلى مكانها بالفعل يا سيدى ؟!

كان السؤال ينطوى على مقارنة خفية ، بين عقله هو ، وعقل (أدهم) ، حتى ولو لم ينتبه الملحق العسكرى إلى هذا ، لذا فقد أجابه (شيمون) فى صرامة قاسية ، باردة كالثلج :

- إنهما مصريان ، ويمكنهما فهم ما فعله زميلهما ، بأكثر مما يمكننا هذا .

قال الملحق العسكرى فى دهشة :

- عجبًا ! كنت أتصورّ أن أحد أهم قواعد (الموساد) ، هى أن نعرف المصريين ، بأكثر مما يعرفون أنفسهم !

تضاعف غضب (شيمون) فى أعماقه ، مما جعله يقول فى غلظة :

- هل سنتابع العملية ، أم أننا سنضيع الوقت فى محاضرات سخيفة ، عن قواعد العمل فى (الموساد) ؟!

انتبه الملحق العسكرى عندئذ إلى الموقف ، فشدّ قامته ، وقال فى سرعة واحترام وتوتر :

- أوامرك يا أدون (دوريل) ..

اعتدل (شيمون) ، مجيبًا فى صرامة :

- اعمل على وجود اتصال مستمر مع الأمريكيين ، وحاول أن تربطنا بصور رادارهم ، عبر شبكة الإنترنت ؛ لأننى أريد تحركًا فوريًا سريعًا ، فور عثورهما على البطاقة .

هتف الملحق العسكرى فى حماسة :

- وعندما يجدونها ، ننقضّ عليهما ، وننتزعها منهما ، و ...

قاطعه (شيمون) فى غضب :

- خطأ .

ثم استدار إليه ، مستطردًا فى صرامة شديدة :

- ألم أقل لك إنك تفكرّ بأسلوب نمطى ؟!

ارتبك الملحق العسكرى ، وهو يقول :

- إننا لن نتركها لهم .. أليس كذلك ؟!

أجابه (شيمون) :

- ولن نقاتل لانتزاعها منهما أيضًا يا رجل .. لن نجازف بمواجهة غير مضمونة النتائج ، مع رجل مثل (أدهم صبرى) .

قال الملحق العسكرى فى توتر :

ـ يمكننا أن نرسل جيشًا من الـ ..

قاطعه (شيمون) فى غضب صارم :

ـ وهل تعتقد أن هذا سيوقفه ؟!

قال الملحق العسكرى ، وقد بلغ توتره ذروته :

ـ إننى أتحدث عن جيش .

هتف به (شيمون) ، وهو ينهض من مقعده ، فى حركة حادة :

ـ ذلك الرجل عاد على الفور ، من مواجهة هزم خلالها جيشًا بأكمله بالفعل[*] .

انتفض جسد الملحق العسكرى ، وهو يهتف فى ذهول :

ـ مستحيل !

لوّح (شيمون) بيده ، قائلاً فى حنق :

ـ مستحيل بالنسبة لأى شخص عادى ، ولكنه شخص غير عادى .. شخص يفوق كل من عرفته فى حياتك .. شخص قادر على قهر المستحيل ، فى عالم الواقع ، وليس على شاشات السينما .

(*) راجع قصة (رجل .. وجيش) .. المغامرة رقم (١٤٢) .

تمتم الملحق العسكرى ، بأنفاس مبهورة :

ـ ليس من السهل أن يصدق المرء وجود شخص كهذا ، فى عالم الواقع .

مطّ (شيمون) شفتيه ، وهو يقول فى مقت :

ـ لهذا يعتبرونه أسطورة .

ثم التفت إلى الملحق العسكرى ، مضيفًا فى شراسة :

ـ أسطورة سابقة .

بدت الحيرة على وجه الرجل ، وهو يتساءل :

ـ ولكننا لن نواجهه .. أليس كذلك ؟!

أجابه فى حزم :

ـ المواجهة لم تفلح قط فى هزيمته .. الأسلوب الأمثل ، من وجهة نظرى ، هى أن تباغته ، من حيث لا يمكن أن يتوقّع .

سأله الرجل فى فضول شديد :

ـ من أين ؟!

أشار (شيمون) بسبابته إلى أعلى ، قائلاً فى سرعة :

ـ من السماء .

أطلت دهشة حائرة ، من عينى الملحق العسكرى ، فعقد (شيمون) كفيه خلف ظهره ، وهو يتابع :

ـ اعمل على إعداد هليكوبتر ، مزودة بكاتم للصوت ، وقاذف صواريخ مزدوج ، ودعها تحلق قريبًا من مبنى مستشارنا للأمن القومى هنا ، بحيث يمكنها أن تتدخل فورًا ، بإشارة واحدة منى .

هتف الملحق العسكرى فى انبهار :

ـ هل ستنسفهما ؟!

أجابه فى حزم :

ـ سأنسف المنطقة كلها ، لو لزم الأمر .

سأله فى قلق :

ـ وماذا عن بطاقة التصوير الرقمية ؟! لو نسفتهما لن يمكننا استعادتها أبدًا .

ابتسم (شيمون) فى سخرية ، قائلاً :

ـ استعادتها ؟! يا للسذاجة ! من الواضح أن ضيق عقولكم قد أنساكم الهدف الحقيقى يا رجل .. إننا لا نسعى لاستعادة تلك البطاقة ، وإنما نسعى لمنع المصريين من الحصول

عليها فحسب ، وعندما يحصلان عليها ، وننسفهما نحن معًا ، نكون قد أحرزنا هدفين بضربة واحدة .. تخلصنا من البطاقة ، وسحقنا أسطورة المخابرات ..

قالها ، وألقى برودة الشهير خلف ظهره ؛ ليطلق ضحكة عالية ..

ضحكة حملت كل الشماتة ..

وكل الوحشية ..

كلها ..

ولكن ضحكته الظافرة القوية هذه لم تكتمل على نحو يرضيه ..

فجأة ، اندفع أحد رجال الملحقية العسكرية إلى المكان ، وهو يهتف بأنفاس لاهثة ، من فرط الانفعال :

ـ الأمريكيون فقدوا أثر (أدهم صبرى) وزميلته .

اتسعت عينا الملحق العسكرى فى ذهول ، فى حين انتفض جسد (شيمون) بمنتهى العنف ، وكأنما أصابته صاعقة ..

ومن أعمق أعماقه ، تصاعدت موجة غضب هادرة ..

موجة تكفى لاجتياح العالم كله ..

على الأقل ..

* * *

تحرك المقدم (سمير) فى نشاط جم ، داخل محطة مترو الأنفاق ، فى قلب (روما) ، وهو يقول لزميلته (راوية) :

ـ أسرعى أيتها الرائد .. سيادة العميد (أدهم) طلب منا مقابلته هنا بسرعة .

قالت فى انبهار واضح :

ـ رباه ! لست أصدق أننى سألتقى به شخصيًا .. إننى أتابع ما يقولونه عنه دائمًا .. إنه أسطورة بالنسبة لى .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ إنه أسطورة بالنسبة لنا جميعًا .

بلغ معها المكان المتفق عليه ، فتوقفا ، وتلفتا حولهما فى اهتمام ، و(راوية) تتساءل :

ـ أين هو ؟!

هزّ (سمير) رأسه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ إنه هنا حتمًا .. سيادة العميد (أدهم) دقيق للغاية ، فى مثل هذه الأمور ، ولكن ربما ..

ارتطم به فى هذه اللحظة ، أحد مفتشى المترو ، فقال فى توتر :

ـ احترس يا رجل .

رفع المفتش الكهل قبعته الرسمية ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيدى .

ثم أضاف بالعربية ، همسًا :

ـ اتبعانى .

اتسعت عينا المقدم (سمير) فى ذهول ، وهو يحدق فى مفتش المترو ، الذى لايمكن أن يتشابه مع (أدهم) ، إلا أنه لم يلبث أن سيطر على مشاعره فى سرعة ، وهو يتبعه مع زميلته ، التى همست فى انفعال :

ـ إنه هو .. أليس كذلك ؟!

غمغم (سمير) فى اقتضاب :

ـ بلى .

واصل (أدهم) سيره ، وهما يتبعانه ، حتى انحرف فجأة داخل مخزن صغير ، ولم يكد الاثنان يتبعانه داخله ، حتى فوجئا بوجود (منى) ، التى غمغمت :

ـ لقد وصلتما فى موعدكما .

قالتها ، وشىء من الغيرة يتسلل إلى مشاعرها ، مع نظرة

الانبهار ، التى تتطلع بها (راوية) إلى (أدهم) ، الذى قال فى حزم :

– الأمريكيون استخدموا أقمارهم الصناعية لتعقبنا .. (القاهرة) أبلغتنا بهذا ، بوساطة شفرة الأضواء الملوَّنة القديمة ، ومن الضرورى أن نفلت من مراقبتهم ، حتى نصل إلى هدفنا .

قال (سمير) فى حماسة :

– نحن رهن إشارتك يا سيادة العميد .

ناوله (أدهم) المعطف ، الذى وصل به إلى المكان ، قائلاً :

– سترتدى معطفى هذا ، وزميلتك الرائد (راوية) سترتدى معطف المقدَّم (منى) .. لقد تركنا سيارتنا فى شارع (ليوناردو) .. اتجها إليها مباشرة ، واستقلاها إلى بناية مستشار الأمن القومى الإسرائيلى (جون روتشيلد) .. أخفيا وجهيكما بقدر الإمكان ، ولا تنظرا إلى أعلى أبدًا ، وعندما تصلان إلى بناية (روتشيلد) ، حاولا إضاعة أكبر وقت ممكن .

سأله (سمير) فى اهتمام :

– هل تعتقد أنهم سيتبعوننا ، بدلاً منكما يا سيادة العميد ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

– إنهم لا يتصوَّرون أننا قد كشفنا استخدامهم لأقمار التجسُّس الأمريكية لمتابعتنا ، وإذا ما أحسنتما القيام بدوركما ، فسيسير كل شيء على مايرام ، خاصة وأننى واثق من أنهم لم يرسلوا أى مراقبين أرضيين ؛ حتى لا يفسدوا العملية كلها ، إذا ما كشفنا أمرهم .

تبادل (سمير) معطفه مع (أدهم) ، وهو يتساءل :

– وأين ستذهبان أنتما ، يا سيادة العميد ؟!

أجابه (أدهم) فى اقتضاب حازم :

– سنكون قريبين منكما .

ثم سأله ، وهو يرتدى معطفه :

– هل فهمت دورك جيدًا ؟!

أجابه (سمير) فى سرعة :

– بالتأكيد يا سيادة العميد .

التفت (أدهم) إلى (راوية) ، وسألها :

– وماذا عنك أيتها الرائد ؟!

حدقت (راوية) فى وجهه بضع لحظات ، بنفس النظرة المبهورة ، فهتفت بها (منى) فى عصبية :

ـ هل فهمت دورك أيتها الرائد ؟!

انتفضت (راوية) ، وكأنما تستيقظ من حلم جميل ، وابتسمت ابتسامة واسعة ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

ناولتها (منى) معطفها ، قائلة ، فى شىء من الحدة :

ـ ماذا تنتظران إذن ؟!

ارتبكت (راوية) ، وهى تقول :

ـ سنذهب على الفور .

ظل (أدهم) صامتًا ، حتى انصرف الاثنان ، ثم قال فى ضيق :

ـ لقد تعاملت معها بخشونة غير منطقية .

أجابته فى عصبية :

ألم تر كيف كانت تلتهمك بنظراتها ؟!

ارتفع حاجباه فى دهشة ، ثم عادا ينخفضان ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلاً فى استنكار :

ـ يا للنساء !

ثم استعاد حزمه فى سرعة ، مضيفًا :

ـ دعينا نتحرك نحن أيضًا بسرعة ؛ فلكل دقيقة ثمنها .

غادرا محطة مترو الأنفاق معًا ، واستقلا سيارة مستأجرة ، وسألته هى ، وهما يتجهان إلى هدفهما :

ـ هل تعتقد أن هذا سيخدعهما ؟!

قال فى اقتضاب :

ـ دعينا نتعشّم هذا .

لاذت بالصمت بدورها ، وهو ينطلق بالسيارة ، حتى بلغا بناية تطلّ على الجانب الشرقى لمبنى (روتشيلد) ، فأوقف (أدهم) سيارته أمامها ، وانتزع قناع الكهل عن وجهه ، قائلاً فى سخرية :

ـ يروق لى أن ألعب ورقتى الأخيرة بوجه مكشوف .

غمغمت :

ـ هذا ينطوى على شىء من الخطورة .



وهناك ، وقف (أدهم) تحت ضوء القمر ، يدير عينيه فى السطح فى اهتمام ..

قال ، وهو يغادر السيارة :

- لا بأس ببعض الخطورة .. هذا يشحذ الهمم .

لم تحاول مناقشته ، بعد أن أدركت أنه يحمل فى أعماقه طاقة هائلة من الغضب ، ومن كراهية الإسرائيليين ، الذى قتلوا زميلهما (عماد) ، وهو فاقد الوعى ، دون رحمة أو شفقة ، ولاذت بالصمت التام ، وهى تتبعه إلى المصعد الخلفى للبناية ، الذى حملهما إلى سطحها مباشرة ..

وهناك ، وقف (أدهم) تحت ضوء القمر ، يدير عينيه فى السطح فى اهتمام ، فسألته فى اهتمام :

- ألنت واثق من أنها هذه البناية بالذات ؟!

أجابها فى حزم :

- البقعة التى كان يقف فيها (عماد) (رحمة الله) ، على سطح بناية (روتشيلد) ، تجعلها الهدف الأمثل بالنسبة إليه .

قالها ، ثم توقف بصره عند بقعة بعينها ، ليضيف فى ارتياح :

- وهذا هو الدليل .

أدارت عينيها إلى حيث يشير ، وخفق قلبها فى قوة ، عندما

وقع بصرها علي سهم قصير سميك ، مغروس فى أعلى الجدار ، وقد التفت حول قاعدته قطعة من المطاط التصقت بها تلك البطاقة ، التى يبحث عنها الجميع ..

بطاقة التصوير الرقمية الصغيرة ..

وفى انبهار ، هتفت (منى) :

ـ رباه ! إنها هنا بالفعل .. أنت عبقرى يا (أدهم) .. عبقرى .

تقدّم هو فى هدوء نحو الجدار ، ووثب ينتزع السهم الصغير من أعلاه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ كان هذا هو التفسير الوحيد ، بعد أن عجز الكل عن العثور على البطاقة ، فى بناية (روتشيلد) .. لقد أدركت على الفور أن (عماد) (رحمه الله) ، أرسلها إلى مكان ما ، وعندما راجعت الملف ، وعلمت أنه قد استخدم بندقية الأسهم ، للوصول إلى بناية (روتشيلد) ، قفز التفسير إلى رأسى مباشرة .

هتفت مبهورة :

ـ ياله من تفسير ! كيف لم يرد هذا ببال أحد ؟!

قال ، وهو يدس البطاقة الصغيرة فى جيبه :

ـ ربما كان هذا من حسن حظنا يا عزيزتى .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى برزت الهليكوبتر فجأة ، من خلف البناية المجاورة ، وما إن رصدت (أدهم) و(منى) ، حتى انبعث من جهاز الاتصال اللاسلكى بها صوت (شيمون) ، وهو يهتف فى صرامة :

ـ الآن يا رجل .. انسفهما الآن .

ولم يكد هتافه يكتمل ، حتى ضغط قائد الهليكوبتر زرًا صغيرًا ، فى قمة عصا القيادة ، فانطلق أحد صاروخيها نحو الهدف ..

نحو سطح البناية ، التى يقف عليه (أدهم) و(منى) .. مباشرة .

* * * *



٧ـ ضربة مزدوجة ..

« كل شيء ينبغي أن يتغيَّر تمامًا .. » ..

نطق مستر (X) العبارة فى صرامة ، عبر مجموعة الشاشات ، التى توصلـه بطـاقم نوّابـه ، فـى دول العـالم المختلفة ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويحمل صوته المعدل إليكترونيًا نبرة غضب ، مع استطرادته :

ـ من الواضح أنه هناك خلل مـا ، فى نظامنـا الأمنى .. خلل جعل التسلل إلى شبكتنا الإليكترونية ممكنًا ، على نحو لم يحدث من قبل قط ، فعلى الرغم من أننى أستخدم أفضل طاقم فنى ، فى العالم كله ، من خبراء ومبرمجى أجهزة الكمبيوتر وشبكات الإنترنت ، إلا أننا قد رصدنا تسللًا مخيفًا ، عبر جدار النار الأمنى لنا(*) ، والأسوأ أننا قد عجزنا عن تحديد مصدره ، بكل إمكانياتنا المتطوّرة ، ممـا يعنى أننا نواجه خصمًا شديد

(*) جدار النار : (Fire Wall) : نظام أمنى متقدّم ، لحماية نظم وشبكات الكمبيوتر بحيث يسمح لمجموعة محدودة من الأجهزة بالعبور ، وتبادل المعلومات ، فى حين يمنع كل ما عداها من الاختراق ، فى نفس الوقت الذى يسجل فيه بياناتها ، على نحو يكشف أمرها ، ويسمح بتعقُّبها فيما بعد ، وفى الوقت الحالى ، تعتبر جدران النار هى أفضل وسيلة حماية معروفة ، وأكثرها قوة .

القوة والتفوّق والدهاء ، والوسيلة الوحيدة للتصدّى لـه ، هى تغييـر النظـام كله على الفـور ، بحيـث نفسد خططه كلها .

قال المندوب الروسى فى قلق :

ـ هذا ليس أمرًا سهلًا يا مستر (X) .

أجابه مستر (X) فى صرامة :

ـ وليس مستحيلًا أيضًا .

قال المندوب الأمريكى متوترًا :

ـ هذا صحيـح يـا مستـر (X) ، ولكن التغيير المفاجئ سيربكنا أيضًا ، كما سيربك الخصم .

هزّ مستر (X) رأسه ، قائلًا :

ـ ربما يربكنا بعض الوقت ، ولكننا لـن نلبث أن نستعيد قوتنـا وقدرتنـا ، بعد أن نتجـاوز المحنـة ، ونتجـاوز تلك المحاولة المحمومة للسيطرة علينا .

سأله المندوب الفرنسى فى عصبية :

ـ ألم تتوصل إلى طبيعة خصمنا يا مستر (X) ؟!

صمت مستر (X) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- ذهنى لايحمل سوى اسمها ، على الرغم من كل التأكيدات لمصرعها فى (باريس) .

قال المندوب اليابانى فى اهتمام :

- ولكننا تأكدنا من مصرعها بالفعل ، وعلينا أن نستبعدها من دائرة الشك والتساؤل ، حتى يمكننا تحديد أخرى .

قال مستر (X) فى توتر :

- لقد راجعت كل معلوماتى ، وكل ما لدينا من ملفات ، ولكن كل هذا لم يسفر عن اسم واحد ، يمكن أن يتقبّله عقلى .

وعاد يهزّ رأسه ، متابعًا :

- باختصار ، لاتوجد أخرى ، تتمتّع بكل هذا الذكاء والشر ، وإلا لكنا عرفنا اسمها على الأقل .

تساءل المندوب الروسى :

- وماذا لو أنها ليست خصمتنا الرئيسية ، بل مجرّد واجهة لخصم آخر ، تم دفعها إلى خط المواجهة ؛ كوسيلة لإرباكنا ، وتوجيه أفكارنا إلى نقطة أخرى بعيدة .

هتف المندوب الأمريكى :

- إنها فكرة جديرة بالدراسة .

انعقد حاجبا مستر (X) ، وهو يدير هذا الاحتمال الجديد فى ذهنه ..

نعم .. إنه احتمال قوى بالفعل ..

ربما كان هناك خصم آخر ، يختفى وراء تلك التى تنتحل شخصية (لورا) ..

خصم يقود اللعبة كلها بذكائه وخبرته ، واضعًا إياها فى المواجهة فحسب ..

وربما هى مجرّد محترفة ، تلعب دورها بمهارة ..

محترفة تجيد القتال فحسب ..

وربما كانت فتاة مخابرات سابقة أيضًا ..

كل شىء محتمل ..

كل شىء ..

تنحنح المندوب البريطانى ، مع فترة الصمت الطويلة ، وقال فى هدوء عجيب :

- إننى أميل إلى هذا الاحتمال .

انتزعت العبارة مستر (X) من صمته ، ليسأله فى حزم :

ـ ومن نقترح ، فى هذه الحالة ؟!

صمت المندوب البريطانى بضع لحظات ، وكأنما يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ هذا يحتاج إلى تفكير عميق ، و..

قبل أن يتمّ عبارته اضطرب الاتصال فجأة ، وتداخلت معه موجة غريبة ، جعلت مستر (X) يعقد حاجبيه فى شدة ، قائلاً فى توتر :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟!

لم تكد تكتمل عبارته ، حتى ظهرت صورة (لورا كيلرمان) على شاشته ، وهى تبتسم ابتسامة ساخرة ، وتنفث دخان سيجارتها فى عمق ، قبل أن تقول :

ـ معذرة يا عزيزى (X) .. لن يمكنك أن تواصل حديثك مع قادة منظمتك ، فكل الشاشات تحمل الآن صورتى .

ثم مالت نحو الشاشة ، مضيفة :

ـ وأوامرى .

ومع قولها ، انطلقت صفارة الإنذار الكبرى فى المكان ..

وانتفض جسده فى عنف ..

فقد كان هذا يعنى أن مقره السرى الخاص ، يتعرّض لهجوم عنيف ..

هجوم قد ينتهى بسقوطه ، وسقوط منظمته كلها فى قبضتها ..

أو فى قبضة من يختفى خلفها ..

أيًا كان ..

* * *

لم تكد تلك الهليكوبتر المقاتلة تظهر ، فى سماء المكان ، حتى أثبت (أدهم صبرى) مرة أخرى ، أنه يتمتّع بسرعة استجابة مدهشة ، يندر أن يمتلكها أى بشرى آخر ..

ففى سرعة مذهلة ، جذب يد (منى) ، وانطلق يعدو معها نحو باب السطح ، صائحًا فى حزم :

ـ لقد كشفوا أمرنا .. سننتقل فورًا إلى الخطة (ب) .

دفعها خارج السطح ، فى نفس اللحظة التى أطلقت فيها الهليكوبتر صاروخها الأوّل ، و ...

ودوى الانفجار ..

دوى على مسافة خمسة أمتار منه ، لينسف جزءًا من سطح المبنى ، ويطلق موجة تضاغطية قوية ، دفعته عبر الباب ليتدحرج على السلم الذى يقود إلى المصعد فى عنف ..

وصرخت (منى) مع ما أصابه :

ـ يا إلهى ! (أدهم) .

فوجئت به يثب واقفًا على قدميه ، والدماء تنزف من جرح فى جبهته ، وهو يقول فى صرامة شديدة :

ـ لا تلتفتى خلفك أيتها المقدّم .. انتقلى فورًا إلى الخطة (ب) .. الخريطة التى أعطيتك إياها ستقودك إلى الهدف ، بينما أبعد أنا أنظارهم عنك .

هتفت :

ـ ولكن ..

صاح بها ، قبل أن تتم عبارتها :

ـ نفذى الأوامر أيتها المقدّم .

كانت تدرك تمامًا ما عليها أن تفعله ، عندما يتحدث معها بهذا الأسلوب الرسمى الصارم ..

عليها أن تنفذ الأوامر ، دون عواطف ، أو مشاعر ، أو أدنى مناقشة ..

هذا لأن لهجته هذه تعنى دومًا أن (مصر) تنادى ..

وأن كل غال يرخص ، من أجل تلبية النداء ..

نداء الوطن ..

أما هو ، فقد استدار خلفه ، وشاهد الهليكوبتر تنخفض إلى مستوى السطح ، وبلغ مسامعه هتاف (شيمون) ، الذى يصرخ عبر جهاز الاتصال اللاسلكى بها :

ـ ماذا تنتظر يا رجل ؟! أطلق صاروخك الثانى .. انسف المبنى كله لو اقتضى الأمر .. المهم ألا يفلتنا بالبطاقة .. هل تفهم ؟! أطلق صاروخك الثانى .

ولم يتردد (أدهم) لثانية واحدة ..

أو حتى لجزء من الثانية ..

فلو أطلقت الهليكوبتر صاروخها الثانى ، من هذا الارتفاع ، وهذه الزاوية ، سينسف المكان كله حتمًا ..

بكل ما فيه ..

ومن فيه ..

وهذا يعنى ضياع البطاقة الرقمية ، بكل ما تحمله من صور الوثائق الإسرائيلية السرية ، التى تثبت تورّط الصهيونية ، فى تفجير برج التجارة العالمى فى (نيويورك) ، فى الحادى عشر من سبتمبر ، عام ألفين وواحد ..

وسيعنى أيضًا مصرعه ..

ومصرع (منى) ..

زميلته وحبيبته (منى) ..

كل هذه الأفكار مرقت فى ذهنه كالبرق ، وهو يندفع كالصاروخ ، نحو الهليكوبتر الإسرائيلية ، التى تحلّق على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب ، من سطح المبنى ..

وفى نفس اللحظة ، التى هم فيها إبهام قائد الهليكوبتر بضغط زر إطلاق الصاروخ الثانى ، فوجئ بـ (أدهم) ينقضّ عليه ، ويثب نحو الهليكوبتر كالليث ، فهتف ذاهلاً :

ـ مستحيل !

ومع هتافه ، تعلّق (أدهم) فجأة بجانب الهليكوبتر ، فاختلّ توازنها مع الثقل المفاجئ ، ومالت على نحو مخيف ، فى نفس اللحظة التى ضغط فيها قائد الهليكوبتر زر الإطلاق ..

وانطلق الصاروخ الثانى ..

انطلق مع ميل الهليكوبتر ، فتجاوز هدفه بمترين كاملين ، كانا يكفيان لتجاوز الصاروخ حاجز السطح ، وينطلق مبتعدًا لعشرات الأمتار ، قبل أن ينفجر فى سماء (روما) ، فى نفس اللحظة التى ارتطمت فيها مروحة الهليكوبتر بمبنى صغير على السطح ، وتحطّمت أطرافها فى عنف ..

وبحركة سريعة ، وثب (أدهم) داخل الهليكوبتر ، ولكم قائدها بكل قوته ، وهو يقول :

ـ نهاية الرحلة أيها الوغد .

ارتجّ جسد الطيّار بمنتهى العنف ، ومنعه حزام المقعد من السقوط ، على عكس طائرته ، التى ارتطمت بالسطح ، وتحطّم زجاجها الجانبى بقوة ، ومروحتها ترتطم بالأرض ، وتتطاير على نحو مخيف ، فى كل اتجاه ..

كان موقفًا رهيبًا بحق ، ولايمكن أن يتخيّله إنسان عادى ..

هليكوبتر تتحطّم على سطح مبنى عادى ، فى قلب عاصمة أوروبية عريقة ..

ومن حسن الحظ أن ارتفاعها القليل قد منع انفجارها ، فاستقرّت على جانبها ، فى مشهد رهيب مخيف ..

وبمنتهى الخفة والنشاط ، وعلى الرغم من إصابته ، وثب (أدهم) خارج الهليكوبتر ، وهو يقول فى حزم :

ـ من الواضح أن هؤلاء الإسرائيليين الأوغاد ، قد قرّروا تجاوز كل الحدود ، وكأنما صار العالم ملكًا لهم .

أتاه صوت صارم قاس ، يقول :

ـ لن يمضى وقت طويل ، حتى يصبح ملكًا لنا بالفعل يا سيّد (أدهم) .

استدار (أدهم) إلى مصدر الصوت فى سرعة ، فارتطم بصره بفوهات ثلاثة مدافع آلية مصوّبة إليه ، وخلفها (شيمون دوريل) ، والملحق العسكرى الإسرائيلى (موشى) ..

وعلى الرغم من المفاجأة ، ومن دقة الموقف ، عقد (أدهم) ساعديه أمام صدره فى سخرية ، قائلاً :

ـ إذن فخدعتنا لم تنطل عليك أيها الوغد .

مطّ (شيمون) شفتيه ، قائلاً :

ـ مطلقًا .. لست أدرى كيف أدركت أننا نراقبك ، وأعترف أن زميليك قد أتقنا دورهما ، إلى حد يكفى لخداع أى مراقب ، إلا أننى كنت أراقب أيضًا أسطح البنايات ، فى المنطقة

كلها ؛ لثقتى بأنك ستأتى إلى مكان قريب من بناية (روتشيلد) ـ حتمًا .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ كان ينبغى أن أتوقّع هذا .

التقط (شيمون) نفسًا عميقًا ، وقال فى ظفر مزهو :

ـ لكل جواد كبوة يا سيّد (أدهم) .

ضاقت عينا (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أنت إذن جواد مشاغب أيها الوغد ، فقد بلغت كبواتك حدًا ، يكفى لتحطيم عنقك القذر ، دون هوادة أو رحمة .

انعقد حاجبا (شيمون) فى غضب ، وهو يقول :

ـ المهم أن تبلغ عنقى أولاً أيها المتحذلق .

أجابه (أدهم) ، فى صرامة قاسية :

ـ لو بلغت عنقك ، ستتمنى لو أنك لم تولد أبدًا أيها الوغد ؛ فقد قتلت زميلى وهو فاقد الوعى ، ولا حول له ولا قوة ، ولقد أقسمت أن أجعلك تدفع الثمن .

قال (شيمون) فى حدة :

ـ كان من المستحيل أن أسمح لكم باستعادته ..

أجابه (أدهم) :

ـ ومن المستحيل أيضًا أن تفلت بفعلتك القذرة هذه ، أيها الوغد الحقير .

هتف الملحق العسكرى فى غضب :

ـ أدون (دوريل) .. لماذا تسمح لـه بـالتبجُّح على هذا النحو ؟! إنـه فـى قبضتنـا ، وينبغـى أن نتخلَّص منـه علـى الفور ، دون أن نمنحه فرصة للتفكير والتدبير .

قال (شيمون) فى خشونة :

ـ هناك أمر ينبغى أن ننجزه أوَّلاً .

ثم تطلَّع إلى (أدهم) بمنتهى الحدة والصرامة ، مستطردًا :

ـ أين بطاقة التصوير الرقمية يا سيِّد (أدهم) ؟!

استعاد (أدهم) لهجته الساخرة ، وهو يقول :

ـ هل تتصوَّر أننى سأمنحك إياها بهذه البساطة ؟!

أجابه (شيمون) فى غلظة :

ـ إننى سأحصل عليها فى كل الأحوال يا سيِّد (أدهم) .. إما أن تمنحنى إياها ، أو أستخلصها من جثتك .

هزَّ (أدهم) كتفيه بلا مبالاة ، قائلاً :

ـ وهل ستطمئن عندئذ إلى أنك قد حصلت عليها بالفعل ؟! ماذا لو أصابتها واحدة من رصاصاتكم ، ونسفتها نسفًا ، فلا يمكنك أن تعلم ما إذا كانت هى البطاقة المنشودة ، أم أنها بطاقة خالية ، أحتفظ بها للتمويه .

ابتسم (شيمون) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك استدراجى إلى تلك الخدعة المعتـادة يا سيِّد (أدهم) .. لـو أرسلت أحد رجالنـا لتفتيشك ، ستتخذ منـه درعًا ، لتواجه رصاصاتنا ، وتنجو من هذا الموقف .

ثم عقد ساعديه أمام صدره بدوره ، مـع استطرادته الحازمة :

ـ كلاَّ أيها الذكى .. سأخاطر بإطلاق النار عليك ، وسأفترض أن البطاقة ، التى سنعثر عليهـا معك ، سليمة أو معطوبة ، هى البطاقة المنشودة .

قال (أدهم) فى سخرية :

ـ المشكلة أنه سيكون عليك بعدها أن تعدو هاربًا ، فمن المؤكَّد أن جيشًا من رجـال الشرطـة الإيطالية سيحيط بالمنطقة

كلها الآن ، بعد أن نسفت طائرتكم المحطمة هذه جزءًا من سطح المبنى ، دون أن تبالى بقوانين ، أو قواعد دبلوماسية ، أو أية أعراف دولية .

قال (شيمون) فى صرامة :

- كل هذه مجرد أمور شكلية ، يغضب لها المسئولون والسياسيون ، وربما رجال الأمن أيضًا لبعض الوقت ، ثم لا تلبث أن تذوى وتتلاشى ، مهما كانت الاحتجاجات الرسمية أو الشعبية .. المهم أن نحقق هدفنا ، ثم نترك للزمن بعدها إصلاح كل شىء ..

قلب (أدهم) شفته ، قائلاً فى ازدراء :

- منطق استعمارى متغطرس حقير .

مع نهاية كلماته ، أطلق هاتفه المحمول رنينًا مميزًا ، يعنى استقباله لواحدة من الرسائل الهاتفية القصيرة ، فقال (شيمون) فى سخرية :

- من المؤسف أنك لن تقرأ هذه الرسالة أبدًا يا سيِّد (أدهم) .

قالها ، وأشار بيده ، فجذب رجال أمنه الثلاثة إبر مدافعهم الآلية ، فى حين استلّ الملحق العسكرى مسدسه ، قائلاً فى حماسة وحشية :

- حانت نهايتك يا سيِّد (أدهم) .

رفع (أدهم) يده فى تلك اللحظة ، قائلاً فى سخرية :

- ألن تحصلوا على البطاقة أولاً .

انعقد حاجبا (شيمون) ، وضاقت عيناه ، وهو يُحدق فى البطاقة الرقمية الصغيرة ، بين سبّابة (أدهم) ووسطاه ، وقال فى حذر وشك :

- هل ستمنحنا إياها بهذه البساطة ؟!

عاد (أدهم) يهزّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

- لست أظنها بهذه القيمة الآن .

ثم قذفها نحوهم فجأة ، مستطردًا :

- هاهى ذى .

قذفها عاليًا ، بحركة مباغتة سريعة ..

وكرد فعل غريزى ، تبعتها أبصارهم ، فى اهتمام بالغ ..

وارتفعت عيونهم عن (أدهم) لثانية واحدة ..

أو أقل من هذا ..

وكان هذا يكفيه ..

تمامًا ..

فقبل حتى أن تبلغ البطاقة أقصى ارتفاعها ، كان هو قد انقضّ كالصاعقة ..

لم يدر أحدهم كيف ، أو متى قطع تلك الأمتار الأربعة ، التى تفصله عنهم ، إلا أنهم وجدوه فجأة بينهم ، قبل أن ينفجر فى وجوههم وأجسادهم كالقنبلة ..

فالغضب الهادر ، الذى تفجّر فى كيانه كله ، منذ مقتل زميله (عماد) ، كان يبث فيه طاقة هائلة ، ضاعفت من قوته وقدراته المدهشة مرتين على الأقل ..

وفى لحظة واحدة تقريبًا ، حطّم أنف أحد رجال الأمن الثلاثة ، وأسنان الثانى ، وغاصت قبضته فى معدة الثالث ..

وقبل أن يستوعب الملحق العسكرى ماحدث ، فوجئ بـ (أدهم) يمسك معصمه ، ويُبعد فوهة مسدسه ، قائلاً فى صرامة :

ـ لماذا لم تطلق النار ؟!

كانت أصابع (أدهم) أشبه بكلاّبة من الفولاذ ، وهى تعتصر معصمه ، وكانت عيناه تخترقان بصره مباشرة ، بنظرة صارمة غاضبة مخيفة ..

ولكن الرجل لم يكن لديه وقت ليخاف ..

أو حتى ليطلق صرخة ألم واحدة ..

فقبل حتى أن يكمل (أدهم) عبارته ، كانت قبضته تنفجر فى فكه ، ثم تتراجع بسرعة مذهلة ، لتهوى على أنفه كالصاعقة ..

وحده (شيمون) وجد لحظة للتفكير ..

ولإدراك ، ماهية الأمر ..

ولأنه أكثرهم خبرة واحترافًا ، فقد كانت هذه اللحظة تكفيه ..

وبكل إرادته وقوته ، وثب (شيمون) ..

وثب نحو البطاقة الرقمية ، التى سقطت أرضًا ، والتقطها صارخًا :

ـ لقد ظفرت بها .

وعلى الرغم من أن (أدهم) قد سمع صرخته ، إلا أنه لم يلتفت إليه لحظة واحدة .. بل ولم يبال بقوله على الإطلاق ..

لقد واصل عمله ، ووضع لمساته الأخيرة ، حتى سقط الملحق العسكرى الإسرائيلى ، ورجال أمنه الأربعة فاقدى الوعى ..

وعندما التفت إلى (شيمون) ، كانت أصوات أبواق سيارات الشرطة تدوى فى المنطقة ..

وكان (شيمون) يمسك البطاقة الرقمية الأصلية فى يده ، هاتفًا :

ـ خسرتم أيها المصريون .

قالها ، ثم ألقى البطاقة أرضًا ، و ..

وسحقها بقدمه تمامًا ..

وعلى الرغم من انقضاضة (أدهم) عليه ، شعر (شيمون) أنه قد انتصر ، فى هذه العملية ..

انتصر انتصارًا ساحقًا .

* * *



٨ ـ الختــــام ..

بدا الأسى على وجه مدير المخابرات العامة المصرية ، وهو يتابع الأنباء الواردة ، من كافة أنحاء العالم ، فى تلك المرحلة العصيبة ، من حياة الأمة العربية كلها ، وهزّ رأسه فى أسف ، قائلاً لمساعده :

ـ الأمريكيون انحازوا للإسرائيليين على طول الخط ، ويتعنتون فى نفس الوقت مع العراقيين ، أكثر مما ينبغى .

وزفر فى مرارة ، قبل أن يضيف :

ـ أصبحوا وكأنهم يرون بعيون إسرائيلية ، ويسمعون بآذان إسرائيلية ، ويفكرون حتى بعقول إسرائيلية .

وافقه مساعده بإيماءة آسفة من رأسه ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أنهم سيشنون الحرب على (العراق) ، حتى لو استجاب لكل مطالبهم .

مطّ المدير شفتيه ، قائلاً :

ـ الأمريكيون والبريطانيون يسعون لإعادة العهود

الاستعمارية ، فى الوقت الذى تصورّ العالم فيه أن التطور الإنسانى الطبيعى ، قد تجاوز هذه المفاهيم .. بل إنهما يتجاهلان حتى الأصوات المعارضة فى دولتيهما ، والتى تصرخ فى كل دقيقة ، مطالبة بعدم شن حرب ، لا يوجد ما يحتم اندلاعها .. العالم كله صار يقف فى جانب ، و(أمريكا) و(بريطانيا) فى جانب آخر ، ولكن هذا لايوقفهما ، أو يمنعهما من المضى قدمًا ، فى خطتهما الاستعمارية الرهيبة .

تابع المساعد بدوره الأحداث التى تتوالى على الشاشة ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أن (إسرائيل) هى المستفيد الأول من كل هذا ، فمع وجود القوات الأمريكية والبريطانية فى المنطقة ، ستقفز هى بخططها الوحشية إلى الذروة ، وستحاول تصفية كل حساباتها ، والتخلص من كل خصومها دفعة واحدة .. إنها الفرصة الذهبية بالنسبة لها .

تنهّد المدير ، قائلاً :

ـ للأسف .

ثم اعتدل فى مقعده ، واستعاد حزمه المعتاد ، وهو يقول :

ـ هل من أخبار جديدة ، بشأن عملية (روما) ؟!

أجابه مساعده فى سرعة :

ـ آخر ما بلغنا هو أنه هناك قتال عنيف ، يدور على سطح المبنى المواجه لبناية (جون روتشيلد) ، مستشار الأمن القومى الإسرائيلي فى (روما) ، بعد أن أطلقت هليكوبتر مقاتلة ، صاروخا على سطح المبنى ، وآخر انفجر فى سماء (روما) .

قال المدير فى اهتمام قلق :

ـ هليكوبتر مقاتلة ، وصاروخان فى قلب (روما) ؟! يا إلهى ! لقد تجاوز الإسرائيليون كل الحدود هذه المرة بحق .

أشار المساعد بيده ، قائلاً :

ـ من الواضح أنهم مستعدون لبلوغ أقصى مدى ممكن هذه المرة ، مهما كان الثمن ؛ فالوثائق التى كشفنا أمرها ، قد تقلب الموازين كلها رأسًا على عقب .

تراجع المدير فى مقعده ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ (ن ـ ١) ذكر ، فى برقيته الشفرية الأخيرة ، أنه لو فشلت الخطة الرئيسية ، فسيلجأ إلى ما أسماه بالخطة (ب) .. هل أشار إلى أية تفاصيل ، خاصة بتلك الخطة (ب) ؟!

هزّ المساعد رأسه نفيًا ، قائلاً :

ـ مطلقًا .. إنه شديد الحرص هذه المرة ، ولايفصح عما يدور فى عقله أبدًا ، خشية أن ينكشف الأمر ، على نحو أو آخر .

تساءل المدير :

ـ وماذا عن الـ ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع أزيز جهاز الاتصال الداخلى على مكتبه ، وارتفع منه صوت يقول فى لهجة ، تشف عن أهمية الأمر :

ـ برقية عاجلة من (روما) يا سيّدى .

ضغط المدير زر الاتصال ، قائلاً بسرعة :

ـ أحضرها على الفور يا رجل .

لم تمض دقائق على قوله ، حتى كانت البرقية بين أصابعه ، يقرؤها فى اهتمام شديد ، قبل أن يهتف :

ـ يا إلهى !

استدار مساعده ليلقى نظرة على كلمات البرقية القليلة ، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما ..

فالبرقية كانت تحمل بالفعل مفاجأة ..

مفاجأة مدهشة ..

للغاية ..

* * *

انطلقت ضحكات (شيمون) عالية مجلجلة ، بعد أن حطّم بطاقة الصور الرقمية بقدمه ، وامتزجت ضحكاته بأبواق سيارات الشرطة الإيطالية ، التى توقّفت عند مدخل البناية ، قبل أن يكتم (أدهم) تلك الضحكات بلكمة قوية ، فى فك الإسرائيلى مباشرة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد أقسمت أن تدفع الثمن أيها الوغد .

كانت اللكمة من القوة ، حتى إن جسد (شيمون) تراجع عدة أمتار إلى الخلف ، قبل أن يرتطم بحاجز السطح ، ثم يعتدل صائحًا :

ـ لقد ربحت المعركة يا (أدهم) .. ربحتها .

وثب (أدهم) ، ليركله فى صدره ركلة قوية ، دفعته إلى الخلف أكثر ، ليتجاوز جسده حاجز السطح ، ويهوى ..

ومن حلقه ، انطلقت صرخة رعب هائلة ، وجسده يسقط من حالق ، و ..



وبكل دهشة الدنيا ، ومع جسده المعلَّق فى الهواء ، رفع (شيمون) عينيه إلى (أدهم) ، هاتفًا : ـ أنت ؟! ..

وفجأة ، أمسكت أصابع قوية معصمه ؛ لتمنعه من السقوط ..

وبكل دهشة الدنيا ، ومع جسده المعلَّق فى الهواء ، رفع (شيمون) عينيه إلى (أدهم) ، هاتفًا :

ـ أنت ؟!

تطلَّع إليه (أدهم) بعينين صارمتين ، فتابع بدهشة أكبر :

ـ أنت ؟! أنت أنقذتنى ؟! أنت ؟!

لم يجب (أدهم) تساؤله ، وهو يرمقه بنظرة مقت رهيبة ، ارتجف لها جسده لحظة ، ثم لم يلبث أن استعاد سيطرته على مشاعره ، على الرغم من موقفه ، فانطلقت من حلقه فجأة ضحكة عالية ، وهو يهتف :

ـ هذه نقطة ضعفكم أيها العرب .. هذه الشهامة السخيفة المضحكة .. كان ينبغى أن تتركنى أسقط يا (أدهم) .. على الأقل سأقضى نحبى ، وأنا أحمل لقب الرجل الذى هزم (أدهم صبرى) بحق .

أجابه (أدهم) هذه المرة ، فى برود مخيف :

ـ هذا بالضبط هو السبب ، الذى دفعنى لمنعك من السقوط أيها الوغد .. قل لى : ألم تنتبه لحظة واحدة ، إلى أن زميلتى قد اختفت ، منذ وصولكم ؟! ألم تسأل نفسك أين ذهبت بالضبط ؟!

هتف (شيمون) ، وجسده مازال يتدلى فى الهواء ، من ارتفاع عشرين طابقًا :

ـ لقد فرّت بحياتها حتمًا .

أجابه (أدهم) بنفس البرود :

ـ خطأ أيها الحقير .. زميلتى انطلقت ، فور هجوم طائرتكم ، لتنفيذ ما أطلقنا عليه اسم الخطة (ب) .

ردّد (شيمون) ، وهو يحاول التشبث بأى شىء ، بخلاف يد (أدهم) :

ـ الخطة (ب) .

أجابه (أدهم) :

ـ نعم أيها الوغد .. الخطة (ب) .. الخطة التى تعتمد على التحرك فى الاتجاه ، الذى لم يخطر ببالكم قط .

خيل لـ (شيمون) أن (أدهم) قد مال نحوه ، وهو يتابع فى صرامة :

ـ فبينما انشغل الكل بمتابعة هجومكم ، وكل ما أثرتموه من ضجة وضوضاء ودمار ، وفى الوقت الذى كنت تتبجح فيه بانتصارك علينا هنا ، نفذت هى وأحد زملائنا ، من مكتب

(روما) ، هجومًا ناجحًا ، على شقة مستشار أمنكم القومى هنا .

امتقع وجه (شيمون) ، وهو يحدّق فى عينى (أدهم) مباشرة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ لا تحاول خداعى .

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا فى بطء ، وقال :

ـ لست أخدعك أيها القذر .. لقد نفذنا الخطة (ب) بالفعل .

اتسعت عينا (شيمون) فى ذهول مرتاع ، وهو يحدّق فى وجه (أدهم) ، قبل أن يهزّ رأسه ، ويهتف فى عصبية :

ـ مستحيل ! لا يمكنك أن تعلم أن الخطة قد نجحت .. إنك لم تغادر المكان بعد هجوم الهليكوبتر .

ابتسم (أدهم) ابتسامة ساخرة صارمة ، وهو يقول :

ـ خطأ مرة أخرى يا أحقر الحقراء .. هل تذكر تلك الرسالة الهاتفية القصيرة ، التى تلقيتها ، وأنتم تصوبون أسلحتكم إلىّ ؟! إنها إشارة متفق عليها ، وهاتفى مجهّز بحيث لا يتلقى سواها ..

ثم التقط هاتفه المحمول بيده الأخرى ، وضغط أزراره ، دون أن يتطلع إلى شاشته ، متابعًا :

- إننى حتى لست بحاجة إلى قراءتها .

قالها ، ثم وضع الهاتف أمام وجه (شيمون) ، الذى اتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدق فى الشاشة المضيئة ، التى حملت رسالة مختصرة للغاية ..

« نجحت الخطة (ب) ، واستعدنا الوثائق الأصلية » ..

انتفض جسد (شيمون) ، وهو يهتف :

- لا .. مستحيل ! مستحيل !

أعاد (أدهم) الهاتف إلى جيبه ، قائلاً :

- أرأيت أيها الوغد ؟! لقد ألقيت لكم البطاقة ، لأننا لم نعد بحاجة إليها ، فقد حصلنا على الوثائق الأصلية .

وقسا صوته ، وهو يتابع :

- إنك لم تنتصر ، ولم تربح هذه العملية .

كاد (شيمون) يبكى ، من فرط القهر والمرارة ، وضاعفت الهزيمة من شعوره بأنه معلق فى الهواء ، ولا يمنعه من

السقوط سوى أصابع (أدهم) وحدها ، فهتف فى ضراعة مذعورة :

- الرحمة .

أجابه (أدهم) فى صرامة شديدة :

- إنك لم ترحم زميلنا (عماد) ، عندما كان فاقدًا لوعيه ، فى سفارتكم الحقيرة .

هتف (شيمون) ، فى ضراعة أكثر :

- الرحمة .

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

- من لا يرحم لا يُرحم .

قالها ، ثم أفلت أصابعه دفعة واحدة ، فانطلقت من حلق (شيمون) صرخة رعب هائلة ، تواصلت بلا انقطاع ، وجسده يهوى ، ويهوى ، من ارتفاع عشرين طابقًا ..

حتى ارتطم جسده بالأرض ، بمنتهى العنف ، وسط سيارات الشرطة ، وصرخات الجماهير ، التى احتشدت حول المكان ..

وفى سيارته ، على مقربة من المكان ، هتف الرائد (ممدوح) :

- يا للبشاعة ! لقد تحطم جسده تمامًا .

التقطت (منى) نفسًا عميقًا ، قائلة :

ـ كان يستحق هذا .

غمغم :

ـ بالتأكيد .

ثم تلفت حوله ، متسائلاً :

ـ الموقف لايبعث على الارتياح ، فالشرطة الإيطالية تحاصر المكان كله ، وسيادة العميد (أدهم) مازال داخل المبنى .

قالت فى حزم :

ـ لا تقلق بشأنه .

ولكنه واصل فى توتر :

ـ هذه البناية لها مدخل واحد ، والشرطة تـ ..

قاطعته فى حزم صارم :

ـ لا تقلق .. العميد (أدهم) يعرف كيف يدير شئونه .

كانت تبذل جهدًا خرافيًا فى أعماقها ، لتكتم ذلك القلق العارم ، الذى تموج به نفسها ، وهى تجلس داخل تلك السيارة الإيطالية الصغيرة ، وكل ذرة فى كيانها تدعو الله (سبحانه وتعالى) أن يساعد (أدهم) ، و ...

وفجأة ، وبعد فترة لم تدر مداها بالضبط ، فتح (أدهم) باب السيارة الخلفى ، ودلف إلى جوارها ، قائلاً :

ـ هيا بنا .. لم أعد أحتمل البقاء فى هذا المكان .

تهللت أسارير (ممدوح) ، وهو ينطلق بالسيارة ، قائلاً :

ـ أوامرك يا سيادة العميد ..

أما هى ، فقد رقص قلبها فرحًا ، وهى تضغط يده فى حنان وسعادة ، مغمغمة :

ـ حمدًا لله على سلامتك .

منحها ابتسامة صامتة ، فسألته فى اهتمام :

ـ بمَ تشعر الآن ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، وأسبل جفنيه ، مجيبًا فى خفوت :

ـ بالارتياح .

ضغطت يده مرة أخرى ، فى سعادة بلا حدود ، فى حين سأل هو (ممدوح) ، دون أن يفتح جفنيه :

ـ أين الوثائق الإسرائيلية الآن ؟!

أجابه (ممدوح) على الفور :

ـ لقد بدأت رحلتها ، التى حددتها لها يا سيادة العميد ، وأحد رجالنا غير المعروفين ، سيحملها فى حقيبة أوراقه الخاصة إلى (اليونان) ، حيث سيتسلمها مكتبنا هناك ، ليرسلها إلى (القاهرة) مباشرة ، وسيادة المقدّم (سمير) يصنع منها عدة نسخ الآن ؛ لحفظها فى الكمبيوتر ، وعبر شبكة الإنترنت ، بحيث لا يمكن أن نفقدها مرة ثانية أبدًا .

غمغم (أدهم) فى ارتياح حقيقى :

ـ عظيم .

سألته (منى) فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أن هذا سيفلح ؟! هل ستنجح هذه الوثائق فى قلب الأوضاع بالفعل ؟!

صمت طويلاً ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ لن يمكننا الجزم أبدًا .. لقد قمنا بعملنا ، وأدينا واجبنا ، ونجحنا فى مهمتنا ، وهذا كل ما يخصنا فى هذا الشأن .

تنهدت ، متمتمة :

ـ بالتأكيد .

قالتها ، وضغطت يده مرة أخرى ، لتبثه حبها وحنانها ، ولتساعده على الاسترخاء داخل السيارة ، التى انطلقت بهم مبتعدة عن المكان ، ومخترقة ذلك الازدحام الشديد ؛ لتعبر فوضى البشر ..

وفوضى الحياة .

* * *

تمت بحمد الله

الورقة الأخيرة

- هل ستنجح خدعة الإسرائيليين، ويخبرهم رجل المخابرات المصرى بسره الخطير ؟!
- كيف يمكن أن يواجه (أدهم صبرى) كل ذلك الخطر .. فى قلب (روما) ؟!
- ترى من يربح هذه المعركة الرهيبة .. ومن يفوز بـ (الورقة الأخيرة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة .. وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) ..



العدد القادم (المأزق)

المؤسسة العربية الحديثة



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

145

ـه

الثمن فى مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع